كراسة عن تاريخ التعذيب الفرنسي في الجزائر

محمد العاقل

1. مقدمة **556**
2. التعذيب الفرنسي في الجزائر **557**
3. عيِّنة من الشهادات **563**
1.3. محمد عباس التركي 563
2.3. طاهر أوصديق 569
3.3. شكوى من سكان دوار العفيس 574
4.3. رسالة من قرية قبائلية إلى المحامي جاك فارجيس 576
5.3. أحد موظفي التعذيب يقص... 579
4. الجزائر أمام المعذِّبين الفرنسيين **586**

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org

1. مقدمة

إنّ موطِن تَخَيُّلِنا الجماعي يرى أنّ التعذيب على «الطريقة الجزائرية» مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعذيب على «*الطريقة الفرنسية*».

فمثال أول على ذلك هو ما ورد في جزء من شهادة عبد السّلام جمعون، الذي تعرّض للتعذيب بمقرّ الدّرك الوطني بعين النّعجة: «شعرت أنّ رجليّ تخذلاني، كان وضعاً يصعب وصفه، وكان جواً مرعباً يتجاوز الواقع المألوف، فلم استطع تمييز الكابوس من الحقيقة. وبادرت إلى ذهني مباشرةً أول صورة من فيلم "معركة الجزائر" حيث كان المسكين غندريش يتعرّض لأبشع أنواع التّعذيب من طرف الجنود الفرنسيّين.»

ويقول ي. بشير في شهادته حول التعذيب الذي تعرّض له في دائرة الأمن بحسين داي: «ما كنتُ أبداً أظن أنّ جزائريّين يحملون حقداً دفيناً نحو جزائريّين آخرين، وقد نجوت من الموت بعد محاولة اغتيال تعرّضت لها عام 1962 من قِبل المنظّمة المسلّحة السرّية.» ولما وصف بشير أساليب التعذيب أشار أيضاً إلى ممارسات الضابط الفرنسي بيجار.

تعرّض ب. محمّد للتّعذيب بحي الجبل بالجزائر العاصمة، ولما تذكر معاناته في شهادته قال: «إنّ الوحشية والسّب هي الوسائل المفضّلة لديهم مثلما كان الحال في عهد الاستعمار.»

ونجد أيضاً إشارات غير مباشرة بين العهدين، فنجد مثلاً في شهادة عمر خيدر إضافة تفصيلٍ صغير عن تعذيبه على يد المخابرات العسكرية في العاصمة: «خلعوا ثيابي ووضعوني فوق طاولة قد صنعت في فرنسا، ثّم قيّدوني وبدؤوا في ضربي.» واعتقِلَ مختار بودشيش في السجن العسكري بالبليدة بعد أن عذبته المخابرات العسكرية بأساليب عدة منها حرق اليدين، ففي مقطع من شهادته ورد التفصيل التالي: «لقد دام التعذيب حوالي أربعة عشرة ساعة، وكان الجلاّدون مقنّعين ويتحدثون بينهم باللّغة الفرنسية وظنّوا أنني لا أفهمهم.»

على العموم نجد أن الارتباط بين التعذيب الجزائري والتعذيب الفرنسي يُشار إليه بطريقة ضمنية وغير مباشرة. ومثال على ذلك هذا المقطع من شهادة سمير بولقرون، الذي عُذِّب بمحافظة الشرطة بحي بوروبه: «ما كنت أتصوّر أبداً أنّ بعض الجزائريّين يتصرّفون بمثل تلك الوحشية إزاء جزائريّين آخرين»، أو جملة من شهادة س. ف. بن زرقة المعتقل

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

بسجن الحراش: «ما كنت أظن أبداً أنّ جزائريّن – اخوة في الدّين والدّم – يستطيعون أن يفعلوا مثل هذا.»

ويروي الأستاذ سعيد مولاي، الذي عُذِّب طيلة ثلاثين يوماً بمقر المدرسة العليا للشرطة بشاطوناف، في شهادته ما يلي:

> توجه إليّ أحد الجلادّين، ولما رآني أعاني من آلام التعذيب سألني: «أبوك شهيد أليس كذلك؟» قلت: «نعم.» فسألني: «لقد عذّبه الفرنسيّون؟» قلت له: «طبعاً.» فسألني: «أيهما تعرّض للتعذيب أكثر، أنت أم أبوك؟» ترددت في الإجابة لأنني كنت اعتقد بأنّه لا يوجد فرق، ومع ذلك قلت: «أظن أنّ أبي هو الذي عُذّب أكثر.» فأجاب: «أيوا!» وكأنه يريد القول أنّ طريقتهم في التعذيب أقل قسوة من التعذيب في العهد الاستعماري.

كل هذه الأمثلة تُظهر بوضوح أنّ ممارسة التعذيب في الجزائر اليوم ترجع بذاكرتنا إلى التعذيب في عهد الاستعمار الفرنسي. والملاحظ أنّ استرجاع هذه الذاكرة يتم من خلال شهادات الضحايا، ولغة وأساليب الجلادين، وخطاب وقوانين المسؤولين عن هذه الممارسة. فإذن التعذيب الفرنسي بالأمس مِرْآة التعذيب الجزائري اليوم. وبالعكس، قد يُقال أيضاً أنّ وصاية الدولة الفرنسية على السلطة الانقلابية في الجزائر تجعل من التعذيب الجزائري اليوم مِرْآة عاكسة تذكرنا بالتعذيب الفرنسي بالأمس.

تعرض هذه الورقة نصوصاً مختارة عن التعذيب في عهد الاستعمار الفرنسي، الغرض منها إبراز بعض المعالم الأساسية لفهم هذه الظاهرة. وقد تشكل هذه النصوص مقدمة شاملة وموجزة للموضوع بالنسبة للقُرّاء الذين يجهلون الموضوع.

سيعرض الفصل الثاني بعض المعْطيات والخصائص العامة التي ميَّزت ممارسة فرنسا للتعذيب في الجزائر. وخُصِّصَ الفصل الثالث لعيِّنة من الشهادات تعكس جوانب مختلفة حول هذه الممارسة من منظور الضحايا. وتستعرض آخر شهادة من هذا الفصل اعتراف جلاد سابق يصف فيه طرق إدارة وتنظيم وتسليط التعذيب، وكذا تطورها إبان حرب التحرير. ويأتي الفصل الرابع ليقدم نصاً لفرنتز فانون لم يسبق نشره باللغة العربية يبيِّن فيه الكاتب الصّلة الأنطولوجية بين الاستعمار والتعذيب.

2. التعذيب الفرنسي في الجزائر

قال فرنتز فانون أن «الاستعمار الفرنسي في الجزائر ساهم كثيراً في تطوير أساليب التعذيب الوحشية التي يمارسها الاستعمار الدولي.»

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

وذلك لأنّ الجزائر كانت مُسْتَعْمَرة أعلنتها فرنسا امتداداً إفريقياً لها، كما اعتبرتها جسراً استراتيجياً للإمبراطورية الأوروبية في إفريقيا. وهذا العدوان الشرس يرجع أيضاً إلى رفض الجزائر وتمرّدها المتواصل ضد الحكم الاستعماري منذ دخوله عام 1830. فعلا لقد عانت الجزائر من عدوان عسكري وبوليسي تميّز بشراسة قلما شهدها تاريخ الاستعمار.

إذا لم ننس بأنّ التعذيب كان السلاح البائس لاستعمارٍ محتضرٍ ما بين 1954 و1962 فإننا لا نتذكر جيّداً أنه كان السلاح الغازي لاستعمار ناشئ ما بين 1830 و1872. كان النظام الاستعماري آنذاك مفروضاً برعب التعذيب (وبالاغتصاب والمجازر الجماعية أيضاً)، مثل أيام إدارة المارشال المشؤوم بيجو. بين هاتين المرحلتين انخفض حجم وشدة القمع غير أنّ ممارسة التعذيب لم تنقرض أبداً بل كانت مستوطنة ومتشتِّتة، فتهدأ قليلاً لكنّها سرعان ما تعود للواجهة بعودة المعارضة للاستعمار.

رغم هذا التطور التاريخي فإنّ الذاكرة التاريخية الجزائرية تقرن ممارسة التعذيب بالمرحلة الأخيرة للاستعمار فقط. فلمواجهة الحرب الثورية التي اندلعت في البلاد، اتخذت الدّولة الفرنسية التعذيب كسلاح حاسم لخنق الثورة الجزائرية بالرعب والقهر. وإذا كان الحجم الحقيقي لهذه العملية الواسعة لم يحصى بعد، فإنّ عدد المعذّبين يمكن تقديره بمئات الآلاف. ففي معركة الجزائر العاصمة وحدها تعرّض عشرات الآلاف من الجزائريين للتعذيب وآلاف آخرين باتوا في عداد المفقودين، فحسب المؤرخ أليستر هورن تمّ توقيف ما بين 30 % و40 % من سكان القصبة.[1]

كان تنوّع أساليب التعذيب «تقليدياً»، فمثلا عند ذكره لمركز التعذيب في مزرعة أمزيان بقسنطينة يقول المؤرخ إينودي: «إنّه من مايو 1958 إلى صائفة 1960 سيق أكثر من مائة ألف شخص إلى مزرعة أمزيان ليذوقوا ألواناً من التعذيب. واستهدف التعذيب النساء، وحتى الأطفال أحياناً، بمقدار ما استهدف الرجال. وتمثلت الطرق المتداولة في الحرق بموقد لحام المعادن، وقلع الأسنان، والاغتصاب، والإيغار، والتفريغات الكهربائية (من شدّة قوتها تقطع الأسنانُ الألسنةَ من جراء اصطكاكها)، والخنق بالماء، والتغريق في مغطس حمام مملوء بالبول والبراز، والخَوْزَقة على الزجاجة، والتعذيب بالبرد، والتعليق من الأعضاء، وتعذيب الفسخ، والتظاهر بالقتل. ويتمّ عادةً إحضار معتقلين

[1] أليستار هورن، *حرب وحشية من أجل السلم: الجزائر 1954-1962*، دار النشر بيرماك، بلندن عام 1987.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

لمشاهدة ضحايا آخرين، ومع هذه الأساليب كلها يبقى المجال مفتوحاً أمام تفنّن الجلاّدين إذ بلغ الأمر بأحدهم أن يثقّب الجماجم بالخارقة الكهربائية.»[2]

لم ينحصر هذا الرعب المنظّم داخل مراكز الاستنطاق ومراكز الفرز، وفي الشقق والدور (فيلات) بالعاصمة التابعة لـ«التشكّل العملياتي للحماية»[3] أو لـ«نصف فرقة الأبحاث»[4] أو لـ«فيلق مظلّيين المستعمرات»[5]، فقد سعت فرنسا المستعمرة لتجعل من الجزائر جُرحاً كبيراً. فذهبت تقيم ما يسمى بـ«المسالخ»: كان الجيش الفرنسي يأمر بالتعذيب وينظّمه، ويُمارسه في الثكنات، والمخيمات، والمزارع والدهاليز وحتى في الهواء الطلق ليلاً.

ولمواجهة التمرّد الثوري ردّ هذا الجيش – الذي اعتمد مبدأ الأولوية الجازمة للإقليمي على العَملياتي – باستراتيجية الحرب المضادّة للثورة. فمن أجل إزالة المنظّمة السياسية الإدارية التابعة لجبهة التحرير الوطني والمتأصّلة في أوساط الشعب، كان الجيش الفرنسي يأمر ويخطّط لمراقبة شاملة لجميع السكان. وبما أنّ هذه الخطّة الاستراتيجية تقوم أساساً على حرب الاستخبارات، كان التعذيب منظّماً ومنسّقاً.[6]

كان ضباط فرنسيون بسطاء يتصرفون في حياة وموت عشرات الآلاف من الجزائريين. وبعد الفوضى التي ظهرت في بداية الحرب حيث كانت كل وحدة عسكرية تقوم بـ«الاستخبارات» على طريقتها، شرع الجيش الفرنسي في ترتيب ممارسته للتعذيب من خلال «مركز التنسيق ما بين مختلف فصائل الجيش». وشرع العسكر أيضاً في تدريس التعذيب منهجياً مثلما كان الحال في مركز التدريب لمكافحة الحرب التمرّدية، الذي أنشأه العقيد بيجار صاحب المقولة: «لا تعذّبوا، ومع ذلك عذّبوا!» فكانت مدرسة هذا

[2] ج. ل. إينيودي، مزرعة أمزيان :تحقيق حول مركز للتعذيب أيام حرب التحرير الجزائرية، دار النشر لارماتان، باريس عام 1991.

[3] Dispositif Operationnel de Protection.

[4] Demi-Brigade de Recherche.

[5] Demi-Brigade de Recherche.

[6] عدد كبير من مسؤولي الدولة الفرنسية أيّدوا التعذيب وكفلوه، منهم روبير لاكوست، وماكس لُجُن، وفرنسوا ميتيران، وموريس بورجاس–موروا، وجي موليّ، وجاك سوستال. ومنهم أيضاً نواب مثل لوبان ولاقايارد اللذين شاركا شخصياً في التعذيب. أما الجنرالات مثل صالان وشال وزمرة من الضباط برتبة عقيد منهم ماسو وبيجار وأرقود، فلا زالت أسماؤهم تستفظع الجزائريين والجزائريات.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

السفاح تُدرِّس عدة طرق للتعذيب، منها طرق التعذيب البوليسي التي صادق عليها المفتش العام للإدارة روجي ويليوم.

بعض الضباط المعروفين بتوظيف التعذيب. من اليمين: أوساريس، وبيجار، وماسو، وشال.

كان المفتش ويليوم يشتغل تحت سلطة وزير الداخلية آنذاك، فرنسوا ميتيران،[7] الذي صرّح عند تكليف ويليوم بإعداد تقرير حول التعذيب بـ«التزامه منتهى النزاهة المعنوية». لم يتعوّق ويليوم بتلطيف الكلام، فيتبيّن من تقريره أنّ التعذيب قد مورس بكل الأشكال التي يمكن تصوّرها، وذلك من طرف كل مصالح الشرطة والدرك، كما أبرز التقرير أنّ المؤسسة القضائية قبِلت بالتعذيب كوسيلة عادية أثناء التحقيق. لقد طالب ويليوم بالمصادقة القانونية على التعذيب وبتحديث أساليبه بدلاً من حظره.

فنادى ويليوم بتعذيب قانوني مَوْكول إلى ضباط الشرطة القضائية، كما حثّ ويليوم على طرق خاصة «في ظروف محددة كحضور ضابط الشرطة القضائية أو محافظ الشرطة مثلاً. قد تثير هذه التوصية ماضياً قريباً ومؤلماً [يُلَمِّح إلى جهاز الغَسْتابو الألماني]، ينزعج منه البعض. لكن ما دامت المسألة قد طُرحت فلا سبيل لتجنّبها.» فأوصى ويليوم بتعذيب عصري وعلمي لا يترك آثاراً بدنية — مثلما يفعله التعذيب بالزجاجة — وهذا يوافق بين مصلحة فرنسا وشرفها، فيقول: «إذا استُعملت أساليب أنبوب الماء والكهرباء بحذر كبير ستُسبّب صدمةً نفسيةً أكثر من جسدية ومن ثمَّ لا يمكنُ الحكم عليها بأنها ذات قسوة مُفْرِطة. إنّ التعذيب بواسطة أنبوب الماء يتمّ بصبّ الماء في فم الضحية إلى حد الاختناق فقط دون الإغماء أو التبليع. أما التعذيب الكهربائي فيتمّ بتفريغات كهربائية سريعة وعديدة توضع على الجسم مثل الكي بالنار.»

[7] روى المؤرخ فيدال ناكي في كتابه بعنوان *أمام داعي مصلحة الدولة العليا* ما يلي: «نوفمبر 1954. لنفتح المناداة بمشهد رمزي. إذ شاهدت المحامية روني استيب بعض مكاتب قصر العادلة بالجزائر العاصمة مضاءة في الساعة السادسة صباحاً، فاجتازت نقطة مراقبة المرور ووصلت إلى مكتب كان يجرى فيه استجواب عدد من موكليها بدون حضور محامييهم. ولم يلاحظ قاضي التحقيق أن ظهورهم مملوءة بالجروح. سرعان ما أذيعت هذه القضية في فرنسا، فاتهم وزير الداخلية آنذاك، فرنسوا ميتيران، المحامية روني استيب بالكذب...»

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

توقيف المجاهد البطل العربي بن مهيدي (الصورة المجاورة) الذي استشهد تحت التعذيب.

توقيف وإهانة مواطنين جزائريين قبل تعذيبهم.

إنّ هذا الحماس الفرنسي لِعصَرْنة الوحشية هو نفس الاندفاع الذي ألهم العقيد تْرانكيي لتنظير القمع والتعذيب. فألّف كتاباً عنوانه *الحرب الحديثة*[8] يقول فيه: «إذا كان في الشارع مائة شخص نختار منهم حوالي أربعين. ويترجَّح أنّ ثلاثة أو أربعة أشخاص من ضمن هؤلاء يعلمون شيئاً، فنقوم بتعذيب الأربعين. هذا يُحدث خوفاً على أيّ حال ومن ثَمّ نحصل على أخبار.»

إن هذه المهارات الآكلة للحم الإنسان التي أدمجتها فرنسا في ترسانتها القمعية كانت من دون شك فعّالة على الصعيد «العملياتي»، ولكنها على الصعيدين السياسي والمعنوي لم تساهم إلاّ في تعجيل المِدْرَج الذي انتهى إلى استقلال الجزائر.

[8] ر. تْرانكيي، *الحرب الحديثة*، دار النشر المائدة المستديرة، باريس عام 1961.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org

ممارسة التعذيب في معركة الجزائر العاصمة

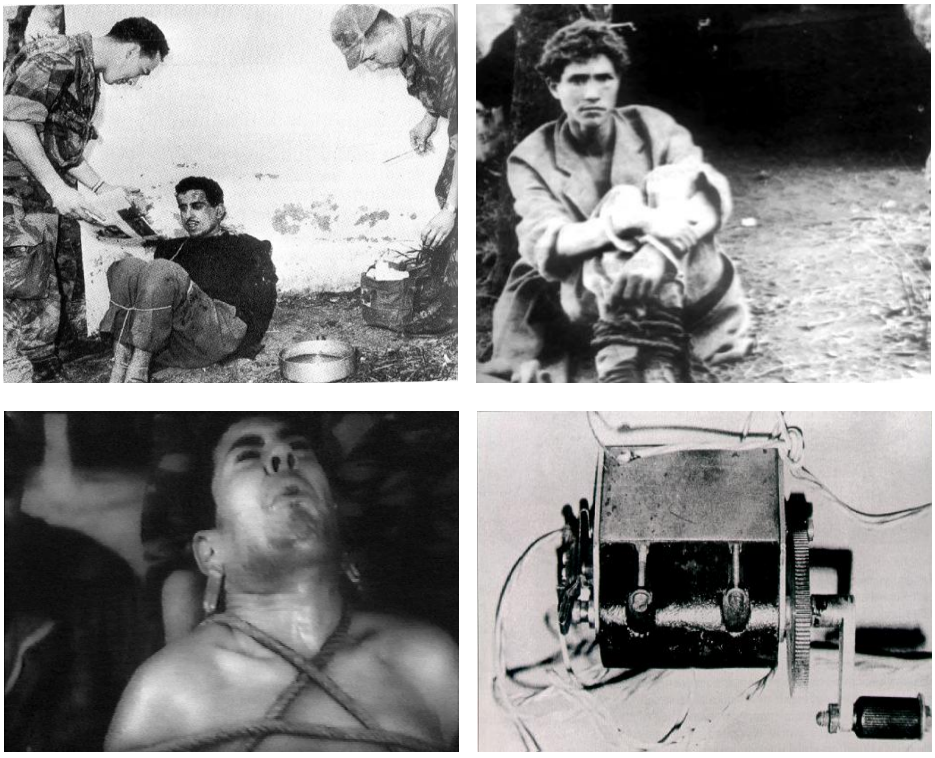

جهاز «الجيجان» (المولّد الكهرطيسي) وتعذيب جزائري بهذا الجهاز في معركة العاصمة

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org

3. عيِّنة من الشهادات

1.3. محمد عباس التركي

المصدر: *المجاهد*، عدد رقم 12-14، نوفمبر-ديسمبر 1957.

في الأيام الأولى من شهر مارس سنة 1957 ألقى المظلِّيون القبض علي في مقر سكناي. قادوني إلى مركزهم على متن سيارة عسكرية. بينما نحن في الطريق لاحظ أحد الحراس أنّ بحوزتي بعض الأغراض الثمينة، فقال لزميله «ما رأيك في هذا، سيُقتل أم لا؟» وهو يدلل على كلامه هذا بحركة لافتة من سبابته على عنقه في إشارة توحي بالذبح. بعد الرد الإيجابي من قائد المواكَبة، عَمَدَ الاثنان على تجريدي من مبلغ 60 ألف فرنك، وربطة عنق، وأزرار زند القميص، وسجائر.

أخبرني فيما بعد رفقائي في الحجز أنّ كل موقوف تحوم حوله اتهامات خطيرة يترجَّح أن يُقتل في مزرعة بيرين (Perrin)، وهذا ما كانت تشير إليه إيماءة المظلّيّ الصريحة بتمرير يده نحو عنقه. كان العسكريون يسلبون كل مشتبه فيه من كل شيء ثمين بحوزته. كان المظلّيون — إمّا الذين يوقفون المشتبه فيه، وإما الذين يقودونه إلى المزرعة، وإمّا الذين يحرسونه أثناء الاعتقال — كلهم يحاولون سلب الضحية مما يملك.

إنّ «حوش بيرين»، كما يسميه سكان القرية، يوجد بالقرب من بئر خادم (في ضاحية العاصمة) على طريق السحاولة وعلى بعد كيلومترين من مفترق الطرق بين البليدة-العاصمة والسحاولة. فهذه المزرعة عبارة عن بناية نموذجية للمستعمر الفرنسي إذ تشتمل على بناية مركزية تُجاورها بنايات مجهزة لتحضير وحفظ الخمور، وتوجد خلفها مشجرة، والكل عائم وسط مساحات شاسعة من الكروم.

وغالبا ما يتم نقل المشتبه فيهم إلى هذا المكان على متن مقطورة محكمة السد بفضل غطاء سميك، وبمجرد وصولهم يُحَوَّشون في فضاء مكشوف تحيط به أسلاك شائكة يحرسه عدة مظليين مسلحين برشاشات جاهزة للاستعمال، ثم يبدأ الاستنطاق بعد يومين أو ثلاثة أيام. وفي غضون الاستنطاق يُغلق على المتهمين داخل إحدى الأحواض الخمسة عشر المخصصة لتخزين الخمور.[9]

[9] إنّ تقرير لجنة الحماية يشير إلى ممارسات تتمثل في احتجاز «المتهمين» داخل «أقبية» (بدلاً من أحواض) مخصصة للخمور. في حالات ثلاثة على الأقل تسببت هذه الممارسة في وفاة العديد من الجزائريين: بعين يسر (تلمسان) قُتِل يوم 15 مارس 1957 ما يقارب الخمسين جزائرياً، وبمرسي لكومب (معسكر) قُتِل يوم 17 أبريل 1957 ستة عشر

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

أما فيما يخصني، فقرروا حبسي على الفور داخل واحد من تلك الأحواض، بعد أن قَدّرَ المسؤولون أنّ قضيتي لا شك أنها خطيرة.

أحواض الخمور عبارة عن بنايات صغيرة مصنوعة من الآجر مساحتها تتراوح بين مترين وثلاثة أمتار مربعة، ومزودة في الجهة التحتية بفتحة يتيمة في شكل ثقب قطره ستون إلى سبعين سنتمتر ويدخل عن طريقه المعذَّب الحوض. وبما أنّ قامتي متوسطة كنت أجد صعوبة في الولوج إلى الداخل. وقيل لي أنه عند استحالة دخول بعض المعتقلين ذوي الأحجام الكبيرة عبر ذلك الثقب، كان المظليون يفتحون البلاطة العلوية التي تشكل سقف الحوض وينزلون المعتقلين من خلالها بحبال يشدونها حول إبطي المعتقل. وكان كل حوض يأوي ستة إلى سبعة أشخاص، فلم يكن ضيق المكان يسمح بتمدد المعتقلين مما كان يضطرهم إلى البقاء في وضعية القرفصاء باستمرار. فبقيت طيلة خمسة عشر يوما في هذه الوضعية لم أبرحها إلاّ عندما كنت أساق إلى جلسات الاستنطاق التي تتخللها شتى أصناف التعذيب.

في بعض الأحيان كان ذلك الثقب يُسد بكيس، وذلك حسب مزاج الحراس أو اسْتياء المظليين بشهادات المعتَقلين، مما تسبب في وفاة عدة معتقلين خنقاً. ومن خلال نفس هذا الثقب كان حراسنا يمررون لنا بعض بقايا وجباتهم إذا تذكروا وجودنا هناك.

كان في المزرعة قرابة أربعين مظلي خُصِّصوا لاستنطاق وتعذيب المتهمين، ولحراستهم. أما المظليون الآخرون، فلم استطع تحديد عددهم وكانوا مكلفون خصوصاً بالدوريات وعمليات التوقيف. ولاحظت في صفوف هؤلاء العديد من الأجانب من ضمنهم عدد كبير من فرنسيي الجزائر. وبرغم حرصهم الشديد على إخفاء أصولهم وهويتهم — كانوا ينادون بعضهم بعضا بأسماء شخصية مستعارة — لقد افتضح أمر الكثير منهم بسبب اللهجة التي تميز سكان ضواحي باب الوادي.

جزائري، وبموزياة (البليدة) قُتِل يوم 27 يونيو واحد وعشرون جزائري. لقد ذكر الجنرال بدرون (Pédron)، قائد فيلق وهران، هذه الجرائم بالتلميح في المذكرة التي نشرها يوم 18 أبريل 1957 بعنوان «حوادث حديثة». أما مجلة *المقاومة الجزائرية* عدد رقم 32 من 1 إلى 10 يونيو 1957 فأوردت قائمة أسماء الجزائريين القتلى بعين يسر (49 اسم). فعقب تفجير لغم من تحت سيارة عسكرية فرنسية تم اعتقال المشتبه فيهم في عملية تمشيط. أشارت مجلة *المقاومة الجزائرية* إلى القتل في «أحواض» خمور وليس في «أقَبية» واتهمت العسكريين الفرنسيين بإلقاء قنابل مسيلة للدموع داخل اثنين من تلك الأحواض مما أدّى إلى وفاة الجزائريين الذين كُدِّسوا بداخلها. راجع باتريك كسال وجيوفاني بيرلي، *الشعب الجزائري والحرب: رسائل وشهادات جزائريين* 1954–1962، دار النشر فرنسوا ماسبرو، باريس 1962، ص 200.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

وميّزتُ وجوها أخرى قد سبق لي أن التقيت بهم في مكان ما بالمدينة. وشَخَّصتُ الزعيم الذي كان يَعيثُ فساداً في المكان، وهو ملازم أول يُسمى «بييرو»، فقد كان من فرنسيي الجزائر.

كان المتهم يُخضَعُ للاستنطاق مرتين، أو ثلاث أو أربع مرات يوميا. وكانت حصص التعذيب تدوم من نصف ساعة إلى ثلاث ساعات كاملة حسب قدراته البدنية وطاقات الجلادين القائمين على الاستنطاق. إن تسيير الاستنطاق كان من مهمة المظليين وحدهم، غير أن ذلك كان يجري بحضور رجال الدرك وموظفي مصلحة حراسة التراب (DST) أو رجال المكتب الثاني.

بعد إخراج المشتبه فيه من الحوض كان يساق إلى غابة صغيرة وراء البناية المركزية حيث حددت مساحة التعذيب ببعض الأكياس الممتدة بين الأشجار. كان التنكيل يُمارَس في الهواء الطلق سواء في الصباح أو تحت جنح الليل.

رأيت حبالاً تتدلى على أغصان الأشجار وعلى أطرافها تتأرجح أجسام المعتقلين المقيدين، أطرافهم الأربعة مشدودة نحو الخلف. مكث بعض السجناء على هذه الحالة طيلة يومين أو ثلاثة. شاهدت هناك العتاد الكلاسيكي المعهود في قاعات التعذيب: مولّد للتيار الكهربائي، وحوض صغير بدل المغطس التقليدي، وأنابيب مياه، وهراوات، ومَناجِر، ودبابيس طويلة تُستعمل لوخز أظافر المتهمين الذين لا تفلح معهم الوسائل الأخرى.

بعد وصول المتهم إلى تلك البقعة، يُجَرّدُ من كافة لباسه ويبدأ الاستنطاق. فعند أول تردد أو نفي يتعرض المتهم لحصة أولى من التعذيب بالكهرباء يليها في غالب الأحيان التعذيب بالخنق بالماء. إنّ هذه الأساليب معروفة وغنية عن الوصف هنا.

أحيانا تُعصب أعين المعذَّب ثم يُعرض للركل تماماً ككرة القدم التي تقذفها أقدام العسكريين المزودين بأحذية ذات صفائح حديدية. وتستمر اللعبة حتى وإن انهار الضحية بفعل الإجهاد، وقد توفى العديد من الجزائريين بعد أن تمزقت أكبادهم من جراء هذه الممارسة.

إنّ الجلادين أكثروا من التعذيب بالنار حيث كانوا يرشون البنزين فوق موضع محدد من جسم الضحية، يده أو فخذه على سبيل المثال، ثم يلهِّبون ذلك بالنار. واستعملوا كذلك المسبار الكهربائي الذي يوضع داخل الأعضاء التناسلية فيُحدث حروقاً لا تطاق من شدة الألم. النسوة اللاتي مررن بـ«حوش بيرين» جميعهن تم تشويههن بهذه الطريقة.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

لكن مع هذه الأصناف كلها، فإن الاختصاص الذي يميز «مزرعة بيرين» هو النجر، إذ يقيّد المعذَّب بصفة محكمة فوق طاولة تستعمل كمِنْضَدَة، ثم يُحرث فخذه أو ذراعه أو ظهره بواسطة منجر تماما كما تكشط الأخشاب. وفي بعض الأحيان كان المظلّيون يذَرّون الملح فوق الجراح على سبيل التسلية.

وكلما أغمي على المعتَقل كان يُسكب عليه دلو مياه باردة لإيقاظه ثم كان يُجبر على الركض مرات عدة حول البناية وهو يجرّ مقطورة. وعندما ينهار المعذّب كان يُساق من جديد إلى داخل الحوض حرصاً على إبقائه على قيد الحياة. ونظرا لدرجة الإعياء الشديد لا يستطيع المعذَّب الولوج من خلال الثقب الضيق، فكان الحارس المظلِّيّ "يساعد" الضحية بوخزه من الدبر بخنجر.

قلت قبل هذا أننا كنا محتَجزين على شكل جماعات من ستة إلى سبعة أشخاص بداخل أحواض انفرادية، وهناك شاهدت بعض المثقفين الجزائريين ممن عرفت في السابق وهم يتعرضون لنفس ضروب التعذيب كباقي المعتقلين. وعلمنا أنهم حُقِنوا بمادة خاصة قال أحد الحراس أنها «مصل الحقيقة»، فكان المعذَّب ينقلب تحت مفعول المصل إلى شبه مجنون يهذي ساعات كاملة حول مواضيع غاية في التهافت.

والتعذيب على هذه الوتيرة كان ينتهي إلى انهيار المعتَقل بسرعة حيث يتحول إلى مجرد خرقة بشرية استنفذت كل معلوماتها فلا فائدة فيها. إنّ نفاذ المعلومات واستحالة إخلاء سبيل المعتَقلين (بسبب احتمال شهادتهم عن التعذيب إذا أُفرج عنهم) يدفعان المظلّي إلى التخلص من الضحية في أقرب الآجال.

كلما أخذ مظلِّيون سكارى سجيناً – خاصة أولئك الذين نال منهم التعذيب – على حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشر مساء، كنا ندرك أننا لن نراه حياً بعدها أبداً. كان المعذَّب يُعرّى ويقيّد ثم يُسحب خلف البنايات فوق تلعة تستعمل كمزبلة، ثم يُذبح هناك. هذه الممارسة جد شائعة حيث لقي خمسة وثلاثون مشتبه فيهم نفس المصير من مجموع تسعين مروا بـ«حوش بيرين». وعادةً ما يتم الإعدام أمام أعين المعتَقلين العنيدين بغرض التأثير عليهم وكسر مقاومتهم.

ومنذ قضية حمادي تيقّن كافة معتقلي المزرعة أنّ الاعتراف لا يضمن السلامة. بالفعل إنّ حمادي اعترف بكل ما كان ينتظر منه المظلِّيون، حتى أنه استُخدم لفترة قصيرة كعون وواش، ولكنه لم ينج. فذات يوم وعدوه بالإفراج عنه في اليوم التالي، غير أنهم قيدوه في

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

المساء كما قيدوا المواطنين الذين سبقوه إلى التلعة، ثم جزوا رقبته. كان يعرف الكثير حول ممارسات وعادات رجال بييرو.

أوقِفَ سلّي تقريبا في نفس الفترة التي اوقفت فيها في مارس 1957، وكان يوجد في حوض مجاور برفقة بن قداش من العاصمة وشابين، أحمد من بئر خادم وإسماعيل من بئر توته، وكذا معتقلين آخرين أجهل أسماءهما كانا يشاركانهم نفس الحوض.

خلال الأيام الثمانية عشر التي عاشها في هذا المكان كان سلّي يستنطق يوميا. وبعض الأحيان كان يُعذّب ثلاث مرات في اليوم الواحد مما أنهكه كثيرا وأوهنه. ذات مساء أخرجه مظلي سكران ثمل من الحوض على حوالي الساعة 11، ثم جرّده من معطفه وبدلته وذبحه فوق التلعة. وتركت ملابسه مهملة أيام عديدة بإحدى زوايا المزرعة على مرأى من الجميع. كان عبد الرحمن سلّي في سن الخامسة والثلاثين وكان مهندسا بشركة البترول شال بمدينة وهران.

داخل البنايات القريبة من المدخل الرئيسي للثكنة التي تطل على شارع قسنطينة، توجد حوالي اثني عشر زنزانة خُصِصَت لحشد المشتبه فيهم الذين يأتي بهم رجال الفرقة أو المظليين. إن طول هذه الزنزانات ثلاثة أو أربعة أمتار وعرضها مترين أو ثلاثة أمتار، ويحوَّش بداخلها من 15 إلى 20 أو حتى 30 شخص حسب دفعات الجزائريين الملقبين «المشتبه فيهم».

وبالرغم من الاكتظاظ الفظيع لم تكن هذه المحلات كافية لإيواء المعتقلين مما أدّى إلى تحويل رواق مكشوف تطل عليه أبواب الزنزانات إلى قاعة جماعية يكدس داخلها المعتقلون الذين يتعرضون إلى المعاكسات والتنكيل المستمر. فيُرغم المعتقلون على رفع اليدين إلى الأعلى أو الوقوف على رجل واحدة ساعات كاملة، ولما ينال الإعياء من المعتقل فينزل يديه أو يريح رجله، ينهال عليه الحراس بالضرب بأخمص البندقية.

غالباً ما كان أحد الحراس يأتي ليلاً – لا شك أنه أكثر "وطنية" من زملائه – فيشهر رشاشه ويأمر المعتقلين بالصراخ: «تحيا فرنسا!»

كان المعتقلون يمكثون من أسبوع إلى عشرة أيام بهذا الرواق قبل أن ينقلوهم إلى زنزانات أو يحولونهم إلى معسكر "الإسكان". ويوجد وسط حشد المعتقلين في الرواق أشخاص طاعنون في السن ومرضى مثل ذلك القصاب من حي حسين داي المصاب بعجز – لا يمكنه التنقل إلا بفضل عكاكيزه. فأثناء حملة تفتيش ضخمة في حي سكناه، عثر المظلِّيون على مبلغ 1.9 مليون فرنك في بيته كانت ستُدفع في اليوم التالي إلى المقاول

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

الذي يقوم ببناء فيلّته، فاستولى المظلِّيون عل المبلغ واعتُقل زعماً أنه مشتبه فيه، وذلك لتحاشي العراقيل. بعدها تقدّم ابنه بشكوى عن هذا السطو، فلقي نفس المصير. إنّ التنكيل الممارَس بهذا الرواق يكفي لوحده لإقصاء – من الوهلة الأولى – الضعفاء بين المعتَقلين. وقد مات العديد منهم خلال الفترة التي قضيتها بثكنة الهندسة العسكرية (اثنين وعشرين يوماً).

وثكنة حسين داي لها بالطبع قاعتها للتعذيب كباقي مراكز الحجز والفرز واستنطاق المعتقلين. فتوجد «قاعة التحقيق» بالقبو، وبمجرد وصول السجين إلى عتبة الباب يتلقى ركلة شديدة في كليتيه مما يقذف به أسفل السلم. وهناك ينتظره «القضاة» فيعرونه ثم يرمونه بدلو كامل من الماء على جسده ويثبتون الأقطاب الكهربائية ثم يوصلون التيار حسب الطريقة التقليدية. وما هذا إلاّ ترويض أولي يدوم حوالي عشر دقائق! وتوجد هنا نفس وسائل التعذيب التقليدية التي شاهدتها في «حوش بيرين» غير أني لم أر موّلِد كهربائي: مصدر التيار هنا هو القِطاع الكهربائي. بعد نهاية حصة التعذيب، يساق المعتقل المنهك إلى زنزانته، وهناك لا يجد حتى جرعة ماء يروي بها عطشه. فلا يحصل المعتقلون إلا على جفنة واحدة حجمها لا يزيد عن نصف اللتر، وذلك لكل زنزانة ولليوم الواحد، أكان عدد النزلاء 12 أو 30، فنستطيع القول أنّ المعتقلين شبه محرومين من الماء.

لا يوجد بين الموظفين المكلفين بحراسة واستنطاق المعتقلين نقاب واحد رغم أنّ هذه الثكنة تنتمي إلى الهندسة العسكرية التاسعة عشر. هنا لا يجد المعتقل تقريبا سوى المظلِّيين، ولكن ليس لهم من هذا صفات المظلِّيين إلاّ اللباس، تماماً كما كان الحال في بئر خادم. فهم في الحقيقة فرنسيو الجزائر (مستعمرون) وشرطيين وعناصر «الدي أس تي» و«المكتب الثاني» كلهم مموهون في هيئة المظلِّيين، ويزاولون مهمتهم بثكنة الهندسة العسكرية. وكان بعضهم يشارك بانتظام في حصص التعذيب أو يشرف عليها شخصيا، كما كان شأن الشرطي حليمي الذي كان يدّعي صلة قرابة مع بطل الملاكمة.

كان معظم هؤلاء الجلادين يفضل التستر على هويتهم، فكانوا يتموهون في هيئة مظلِّيين أصلهم من باريس. فلما ميَّز متهمٌ احتجِزَ بزنزانة ملاصقة لزنزانتي أحد المظلِّيين، ناداه باسمه، فتتظاهر هذا الأخير بعدم الاكتراث، وبعد فترة قليلة (على الساعة السادسة مساء) تم إخراج السجين من زنزانته ثم أُجهِز عليه.

ووَقعَت حادثة شهد عليها كافة زملائي بالزنزانة جعلتنا نتيقن من هوية المظلِّيين الحقيقية حيث أتت امرأة عجوز تبحث عن ولدها، وهو شاب عمره 17 سنة، فسألت

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

إذا تم توقيف ونقل ابنها إلى الثكنة بعد حملة مداهمة الشرطة الأخيرة. وما إن أخبروها أنّ اسم ابنها يوجد في قائمة الذين «قُتلوا أثناء محاولة فرار» حتى انهارت بالبكاء مع سيل من اللعنات في وجه العساكر. وأراد المظلِّيون التخلص منها بسرعة فقاموا بسحبها من أمام زنزاناتنا لإلقائها خارج المقر، وفي هذا الأثناء بالضبط ميّز الابن والدته من صوتها، فصاح بكل قواه: «أنا هنا! أنا حي!»

وفي المساء، أخرجوه من زنزانته، واستنتجنا من طقطقات رصاص الرشاشات أننا لن نراه بعدها أبداً.

2.3. طاهر أوصديق

المصدر: حفيظ كرمان، *سحق المقاومة*، دار النشر لاسيتي، لوزان 1960، ص. 27-34.

في نهاية إضراب الثمانية أيام الذي قررته جبهة التحرير الوطني، أي بتاريخ الاثنين 4 فبراير 1957، اقتحم المظلِّيون التابعون للعقيد بيجار (القبعات الحمراء) بيتي وألقوا القبض علي. فجرَّني ضابط وجنديان ومفتش من مصلحة حراسة التراب الوطني[10] من سريري وألقوا بي في الشارع، ثم عصبوا عينيّ أمام زوجتي وأطفالي.

جرّوني إلى سيارة كانت في الانتظار غير بعيد من مقر سكناي، وبعد أن دفعوني بالداخل، جلس أحد الجنود فوقي وانطلقت السيارة باتجاه بوزريعة. وأثناء السير انفك العصْب من حول عينيّ فرأيت ظِلالاً كئيبة تلقيها الأدغال والأشجار على قارعة الطريق. تباطأت السيارة قليلا ثم توقفت.

أنزلوني من السيارة وقيّدوا معصميّ وراء ظهري. وفي الأخير نطق أحد الجنود وسأل: «وماذا الآن سيادة الرقيب؟» أجابه: «أصرعه!» فتكالب علي الجلاد وانهال علي بعقب المسدس ضربا على الرأس. صرخت من شدة الألم وبدأ الدم يتدفق بغزارة على وجهي فأغشي على بصري. تمزق جلد رأسي في أماكن عدة وبدأت أشعر بالوهن. فجأة سمعت قرع خطى، ورأيت خيالاً ثم سمعت أمراً: «ارموا به داخل "الدودج"[11] وانقلوه إلى مقر القيادة!» (أي مقر العقيد بيجار). ما هي إلاّ لحظات حتى وصلنا، فأنزلوني من السيارة وسحبوني نحو ساحة صغيرة حيث نزعوا مني حذائي وجواربي وأكرهوني على المشي على

[10] DST.

[11] عربة عسكرية من طراز أمريكي.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

يديّ ورجليّ ثم رموني في ما يشبه قفص صمّم تحت درج، فسقطت فوق أجساد بشرية وسألت: «من يوجد هنا؟» فأجابني صوت خافت: «إخوانك!» كان عددنا تسعة، وأغلبنا أبناء نفس الحي. لضيق المكان كنا مكدسين فوق بعضنا البعض. كانت تصلنا من الخارج أنغام موسيقية مرحة تنطلق من مذياع، وكنا نسمع جنوداً يتغنّون بنغمات معروفة وسط سيل من الضحك.

بدأ النهار بحلة مكفهرة وحزينة. كنت على موعد قريب مع أولئك الأشخاص المكلفين بـ«ترويض» وقمع الذين يعلنون جزائريتهم وحبهم للجزائر. وفجأةً ناداني شخصٌ من الخارج، ورُفع الرداء الذي كان يغطي المدخل، فظهر جنديٌ ملامحه فظة، ووضع على رأسي قناعاً من المطاط غطاه كليا، ثم دفعني أمامه إلى داخل إحدى القاعات. أجلسني على كرسي يشبه متكأ حديديا وقيد كلا اليدين والرجلين على أذرع ذلك الكرسي، ثم وضع قطباً كهربائياً على كلا أديّ ثم ابتعد.

ارتفع صوت غير بعيد واتجه إليّ: «أنت الآن بين أيدي المظلِّيين التابعين للعقيد بيجار. نحن لسنا بشراً، نحن وحوش. هاك ذُق هذا! فهزت صعقة كهربائية عنيفة جسدي كله وشعرت ساعتها وكأنّ ضربات مطرقة تدق صدغيّ. وتواصل تفريغ الكهرباء مما جعل الكرسي يأخذ في الدوار ثم ألقيتُ على الأرض. كان اللُعاب يخرج من فمي بغزارة، عندها أتتني رُؤية: قاعة مستشفى وممرضات بلباسهن الأبيض. فقوَّموني وبعد أن هزّوني بشدة أعادوني إلى مكاني. أعاد نفس الصوت على مسامعي: «ستعترف وتقول لنا كل ما تعرفه، وإلاّ سنعيد الكرة مرارا إلى أن ينطلق لسانك.» فهزتني صعقة كهرباء عنيفة لكنها وجيزة هذه المرة، وواصل نفس الصوت: «أنت من قادة جبهة التحرير الوطني وهددتَ بالموت أحد تجار حي مناخ الجزائر الذي رفض إعطاءك أموالا.»

قلت: «هذا غير صحيح. لم أهدد أيّ شخص.» فردّ عليّ بصعقات كهربائية عنيفة وقصيرة لكنها متكررة. أغمي علي من شدة الإرهاق بعض الوقت. وتوقف كل شيء، ولما استفقت، عمد الجندي على نزع سروالي ووضع القطب الكهربائي على الأعضاء التناسلية: كان الأمر مرعبا والألم فظيعا. تكررت العملية عدة مرات، ثم نقلوني في حالة من فقدان الوعي التامة إلى القفص.

أخذتني سنة من النوم، لكن حوالي ساعتين بعد ذلك جاءوا من جديد ليأخذوني، فأدخلوني ثانية إلى قاعة التعذيب بعد أن غطوا رأسي داخل قناع. أجلسوني في نفس الوضعية ثم بدأ صوت في الصراخ: «هيّا! من هو؟ هل تعرفه؟» فأجابه صوت غير غريب عليّ: «نعم سيادة الملازم الأول، إنه هو، أعرفه، جاءني إلى متجري وقال لي"هل تساعد

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

أم لا؟" فأجبته: "أنت من جبهة التحرير الوطني وأنا من الحركة الوطنية الجزائرية، أنت ساعد حزبك وأنا أساعد حزبي."»

عندها قلت له بغضب وبالعربية: «سي لعربي، ألا تستحي؟» أخرستني شحنة كهربائية عنيفة وألقت بي إلى الخلف، وقال لي الضابط: «تكلم بالفرنسية!» ثم سألني: «هل تعرفه؟» فأجبته: «هذا العربي، القصاب بحي مناخ فرنسا.»

أدخلوني غرفة ثانية كانت أرضيتها مبللة ووسخة يوجد بها أنبوب لولبي الشكل موصل بحنفية، وأحذية قديمة في إحدى الزوايا، وصرة من نسيج كتان الأكياس تطفو فوق الماء. نظر الضابط إليّ مُطَولا ثم قال: «إما تتكلم وإما أجعلك تنتفخ ماءاً.»

أسقطوني أرضا وقيّدوا رجليّ ويديّ ثم وضعوا خرقة الكتان على وجهي وفتحوا الحنفية، فتدفق الماء على كل جسدي، وامتلأ بطني ماءً عبر فمي ومناخيري اللتين بدأتا تحرقاني. كانت الخرقة تُرفع ثم تُرد بين فترات قصيرة، ولما أنهكت وضعوني على البطن فتجشأت قسطاً من الماء. سمعت، وكأني بحلم، أحدهم يقول: «هذا يكفيه الآن، خذوه إلى الساحة، خلف الشباك.» سحبوني نحو زاوية من الساحة خلف الشباك حيث مددوني تحت أشعة الشمس؛ ساعدتني الشمس رغم شحوبها كثيراً، وواصل الماء تدفقه من الفم والشرج.

على حوالي الساعة الخامسة مساء رجعوا لاستنطاقي من جديد: بالكهرباء، دائما بالكهرباء...

كنت قد استسلمت للتو في النوم لما جاءوا يبحثون عني، كانت الساعة وقتها العاشرة والنصف ليلا. دفعوني على متن سيارة جيب غير مغطاة، فانطلقت نحو اتجاه مجهول. دام المشوار عشر دقائق بدت لي وكأنها قرن من الزمان. توقفنا بوسط حي الأبيار بداخل ساحة إحدى العمارات، فتنهدت وشعرت بشيء من الارتياح، وقلت في نفسي: «كلا، ليس بعد، لن تنقل صحف الغد خبر انتحاري داخل زنزانتي أو محاولة فراري.» اقتادوني إلى قاعة بالطبق الثاني. كانت هناك طاولة طويلة الشكل، خلفها نقيب وضابطان برتبة ملازم أول وضابطان آخران برتبة ملازم. كان رقيب وجندي يقفان بجانب جهاز ضخم أسطواني الشكل مثبت على ركيزة ثلاثية القوائم: جهاز «لا جيجان» (المولّد الكهرطيسي).

قال لي النقيب: «أنت قيادي من جبهة التحرير الوطني، قد تم القبض على مسؤولي الخلايا التابعين لك. أنطق وإلاّ سنُجْبَر على استعمال الوسائل الثقيلة... أيها الرقيب، ضع السوار على يديه!»

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

نهض الرقيب وأخذ أسلاكاً كهربائية موصلة بالمولّد الكهرطيسي ثم لفّ أطرافها حول معصميّ، وبإشارة منه بدأ الجندي في تدوير مدوِّرة: كان الأمر فضيعاً، لا يطاق. كان التيار يتضاعف بقدر ما تتصاعد سرعة الدوران، وظننت حينها أنّ يديّ انفصلتا عن جسدي، ثم وقعتُ على الأرض. واستمرت هذه الحصة الأولى طويلا.

قيل لي: «والآن، هل ستتكلم؟» لم أجِب. سمعت: «طيب، أنت مسؤول عن هذا! يا رقيب، هات بحلقتي الأذن!« نزعوا الأسلاك الكهربائية من معصميّ ووضعوهما حول أذنيّ، ثم انطلقت المدوِّرة من جديد أكثر فأكثر سرعةً، وشعرت برأسي على وشك الانفجار، وأخذت أذنيّ تطنان.

كان النهار هادئا ودون أية مفاجأة. كانت العمارة تعج بالمعتقلين من كل الأعمار والفئات الاجتماعية: من تلاميذ مدارس الابتدائي (ثلاثة عشر عاماً) إلى الشيوخ في السبعين من العمر، ومن الفلاح إلى الصيدلي والمحامي. كان يخيم على الرواق صمت مطلق نتيجة تواجد حراس مسلحين بالرشاشات. ما كنا نسمع إلاّ قرع أحذيتهم تطن فوق البلاط. كنا نتقاسم علبة سردين بين ثلاثة أشخاص وخبزة كروية الشكل بين ستة سجناء، وكانت هذه حصة وجباتنا اليومية. لم أكن جائعا البتة، وما كنت أبحث إلاّ على الماء لأني كنت مُجفَّفاً تماماً. وكان هبوط الليل وانطلاق أصوات المذياع بالموسيقى الصاخبة بوادر باستِئناف حصص التعذيب. كان المذياع يُستعمل لإخماد أصوات الضحايا كي لا تصل إلى الشارع.

كان جو مكهرب ينتشر إلى كافة القاعات، كما كان الخوف يتملك القلوب، كل منا ينتظر دوره.

فجأة سمعت صدى خطوات تجوب الرواق وعقبها سمعت المناداة على إسمي تخرق سكون الليل، فنهضت بمشقة وتوجهت نحو الرواق. بالطابق الثاني أدخلوني غرفة التعذيب، فرأيت نفس الأشخاص غير أنّ أدوات تعذيب عشية أمس استُبدلت بأدوات أخرى: مغطس كبير من مادة الزنك ثلاثة أرباعه مملوءة بالماء، وخشابة بعرض حوالي 20 سم وطول حوالي 180 سم، وحبل طويل من مادة القنب.

بعد إشارة تقدّم الرقيب مني ودفعني بعنف فالتطم رأسي على الجدار، ثم ساعده ملازم أول لتقييدي بشكل محكم على الخشابة في اتجاه الطول، من الأيدي إلى الكتفين، ثم مسك الجلادان الخشابة وقلبوها بحيث أصبحت ممددا طولا وجهي نحو الأرض، واغطسا رأسي داخل المغطس إلى حد الكتفين، فكنت اختنق وأتخبط. أخرجوني من الماء وأسندوا

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

الخشابة التي كنت مقيداً عليها على الجدار. تحركتُ قليلا فانزلقت الخشابة وسقطتُ على طولي على الأرض، فنَكَأ جرح رأسي فسال الدم: لقد نجوت هذه الليلة. تأثر جندي شاب بوضعي، فجاءني من غرفة مجاورة بكيس أحسن حالا، فنزعت ملابسي ووضعت ذلك الكيس ثم تمددت على التبن وغصت بسرعة في نوم عميق. في صباح اليوم التالي، على الساعة العاشرة تقريبا، جاء جندي شاب لإيقاظي فقال لي: «انهض واتبعني.» أمام صعوبتي في النهوض، أعانني على الوقوف وأخذ ذراعي، ثم قادني إلى الطابق الثاني، إلى غرفة التعذيب.

كان هناك عسكري برتبة مساعد جالسٌ وراء طاولة، وكان الرقيب الشهير واقفاً وسط الغرفة، فتقدم مني ونظرته أكثر وحشية وقال لي: «قد اشتغلت بسيرك، قد صارعت دبة، هل ستتكلم أم لا؟» وبدأ في الهيجان، يقترب ثم يبتعد، ثم بعد فراغ صبره وجه إلى بطني ضربة بعنف شديد. فانبهرت وانقطع نفسي وسقطت على الأرض فاقدا وعيي. لما استفقت وجدت نفسي ممددا على تبن الزنزانة في حالة لا أجرؤ على وصفها. كنت منهكاً تماما وعاجزاً على أية حركة. لم أستطع تناول أيّ طعام، كل ما كنت أطلبه هو الماء. فاستنفر الحارس الضباط نظراً لسوء حالتي، فجاء ملازم أول ونظر إلي طويلا من خارج الباب ثم انصرف. بعد ذلك زارني ضابط طبيب وممرض ثم فحصني الطبيب بعناية. كان لحم فخذيّ ورجليّ وأذنيّ يتمزق. وتجلَّط الدم وهدأت آلام الجراح غير أنّ الجرح في الشرج لم يَلْتَئِم.

عبس وجه الطبيب لما تفقَّدني، واتصل بالنقيب الذي بعث من يشتري لي أدوية. لم يبخل علي الاخوة المعتقلون معي بالتشجيع بكل ما استطاعوا من قوة وعالجوني بتفان.

تطلب شفائي الكثير من الوقت، ولم يُعتدى عليّ أثناء ذلك. ذات صباح أنزلوني إلى الطابق الثاني وأدخلوني غرفة أين كان فيها العديد من المعتقلين (كان عددنا وقتها ثمانية عشر). كانت هذه الغرفة تطل على غرفة التعذيب، فكنا نسمع بوضوح صوت الجلادين وتأوهات الشباب: كنا نتعرض حينها إلى أبشع تعذيب معنوي.

ذات ليلة، على حوالي الساعة العاشرة والنصف ليلا، تقدّم إلى زنزانتنا رقيب وصرخ: «علي فوضال، أنهض، سننقلك إلى المعسكر.» فسأله علي متوجسا: «هل أحمل معي بطانيتي؟» أجابه الرقيب: «كما شئت»، ثم أخذه معه. وفي يوم الغد، تسرّب إلينا خبر يفيد «أنه حاول الفرار» (أي اغتيل). عند قدوم الليل، جاء نفس الرقيب يبحث عن الأخ محمد سنان الذهب، فكان لمحمد نفس المصير: «حاول الفرار».

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

في ظهيرة أحد الأيام، جاءوا ينادونني فأخذوني إلى غرفة صغيرة شبه مظلمة أين حلقوا ذقني، ثم أوثقوا ذراعي على طول جسدي حيث كنت مربوطاً بشكل كلي. ووضعوني داخل سيارة الجيب. كان إلى جانبي كلب بوليسي وجندي مسلح برشاشته. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر لما مررنا على حي الأبيار. نقلوني إلى مقر القيادة للعقيد بيجار الذي كان يتأهب لندوة صحفية. لما أنزلوني من الجيب بدأت أشعر بالتعب، وصعوبة جريان دّمي، فكدت أن أسقط لولا أن أحد الجنود مسكني وصفعني عدة مرات قائلا: «تريد التذاكي معي، هذا لن يجدي معي!» رغم ذلك أرخى قيودي شيئاً ما فشعرت بتحسن. في الأخير وصل الصحفيون وتم استقبالهم داخل الصالة الكبيرة التي امتلأت بسرعة. وكنت آخر من أدخلوه هذه القاعة مقيداً ومراقباً من طرف حارس وكلبه.

شرع العقيد بيجار في الكلام وقال: «أيها السادة، يوجد أمامكم، أحد قيادي جبهة التحرير الوطني، سأقرأ على مسامعكم التقرير الذي حرر عقب استجوابه، ولكم بعد ذلك أن تطرحوا أسئلتكم.»

سألوني أين تابعت دراستي وإذا كنت قد خضت الحرب، وأين تم إلقاء القبض علي، وإن كنت لا أزال نشطا. لم يستطع الصحفيون أخذ صور لي نظرا للحالة الصحية المزرية التي كنت فيها...

شهادة الطاهر أوصديق، أستاذ تعليم ابتدائي بالعاصمة، 13 يونيو 1958.

3.3. شكوى من سكان دوار العفيس

المصدر: بتريك كسال وجيوفاني بيريلي، *الشعب الجزائري والحرب: رسائل وشهادات جزائريين 1954-1962*، دار النشر فرانسوا ماسبرو، باريس 1962، ص. 38-39.

رسالة من ستة عشر مواطن من سكان من دوار عفيس بقسنطينة إلى جريدة باريسية

دوار العفيس، 15 أبريل 1956

سيدي المدير،

نحن سكان دوار تم إحراقه نكتب إليكم لنخبركم بالفظائع والمصائب التي أصابت شعباً مسكيناً أعزل يموت أبناؤه جوعا يوم 28 مارس الفارط.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

في ذلك اليوم دخل قريتنا قرابة الخمسين عسكريا كانوا قادمين من قرية لامي (قرية تبعد 17 كيلومتر عن دوارنا)، فأحرقوا خمسين كوخاً. وقبل أن يضرموا النار استولوا على كل ما راق لهم: بيض، ودجاج، وسمن، وأموال، ووشاحات النساء.

نوّد تزويدكم بأسماء كافة النساء والرجال والأطفال الذين لم يعودوا يملكون أيّ شيء وأصبحوا يعيشون بؤساً ما بعده بؤس، لكن سيطول ذكر هذه الأسماء لذا نكتفي بذكر بعضها: رابحة بن فجري، امرأة شابة، ومتسوّلة، وأم لطفلة عمرها 15 عاماً؛ خشوني، أرملة معاقة لا تملك بداخل كوخها أكثر من قدر كيل يتيم من الدقيق؛ مسعودة شدلي، أرملة، هي الأخرى متسوّلة وأم لطفلة عمرها عشر سنوات؛ فاطمة مشري، فتاة يتيمة عمرها عشرون سنة تسكن مع أخويها الصغيرين، أحدهم عمره عشر سنوات والآخر ثمان سنوات.

كوخان آخران، واحد صاحبه أحمد شادلي أب لأحد عشر طفل، والآخر يعود لإبراهيم شادلي أب لثمانية أطفال، وستة أكواخ آخرون لكل من حسين خشوني وثلاثة من أبنائه، هدى خشوني أرملة مع ستة من أطفالها، إلى باقي الأسماء التي لا يتسع المجال لذكرها كما أسلفنا القول، فاقتصرنا على سرد بعضها.

بعد ذلك اقتيد عشرون من بيننا بصفتنا «مشتبه فيهم» غير أنّ أغلبنا شيوخ سبعينات من العمر وأطفال أعمارهم تتراوح بين 15 إلى 17 سنة. وتركنا خلفنا ركاماً من الرماد، وأسى لا يتخيل، ونساء تبكين وأطفالاً يصرخون. على أيّ حال اقتادونا إلى ثكنة لامي وقاسينا هناك أبشع أصناف التنكيل وأفظع ضروب الاسترقاق. بعد أن قيدوا أيدينا وأرجلنا بدؤوا وخزنا بخنجر حاد كما أشعلوا قداحات ووضعوها تحت آذاننا فأحدثت نارها آلاماً فاجعة لا تطاق. وتوفى أحد رفاقنا – عجوز في السبعينات أجريت له السنة الفارطة ثلاثة عمليات جراحية – جراء ذلك التعذيب. كما لقي آخران نفس المصير، حيث ثُقب عنقيهما بخناجر فلم يمكثا معنا في السجن أكثر من ليلة واحدة، إذ بعد فترة احتضار مفجع وأنين رهيب لفضا أنفاسهما الأخيرة وسط بركة من الدماء. ويوجد معتقلٌ آخر – امبارك خشوني – حاليا بالمستشفى المدني ببون (عنابة) نتيجة تكسير ذراعه وثلاثة طعنات خنجر غائرة في الظهر.

تعرضنا كل صباح ومساء لنفس التعذيب ونفس الوحشية، وفي الأخير أطلق سراحنا بعد أسبوع من المعانات الأليمة. في البداية كنا عشرين شخصاً، ولم نعد اليوم سوى عشر رجال، أو قُل بالأحرى عشر نصف أحياء، فتوفي منا ستة وبقينا دون أيّ خبر عن الأربعة

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

الآخرين، فلا يعلم أهاليهم إلى يومنا هذا إن كانوا أحياء أم في دار الخلود. وترك عشرة مفقودين خلفهم العديد من الأيتام يبكون آباءهم.

ونحن في حالة استغاثة قصوى لا نعرف إلى مَن نتجه للتعبير عن أوجاسنا وخشيتنا، فنتوجه إليكم سيدي المدير ونطلب منكم أمرا غاية في الخطورة، ربما ترفضونه لكن لا مناص، سنحاول رغم هذا. نخاطب إنسانيتكم من أجل نشر هذه الرسالة على صفحات جريدتكم، نعلم يقينا أنّ الأمر خطير وقد تصادر جريدتكم بسبب ذلك ولا نرغب في هذا مطلقا. أو ربما ارتأيتم تقديم رسالتنا هذه إلى السيد غي مولي الذي نحترمه جدا ونعلم أنه يجهل القمع الجبان المسلط علينا ومصائبنا، هذا القمع الذي ينزل على شعب فقير أعزل دون تمييز. كما نحيطكم علما أنّ الحكومة صادرت بنادقنا أربعة أشهر قبل حدوث المذبحة زاعمة أنّ ذلك في مصلحتنا.

نوّد الإضافة سيدي المدير أنّ أغلبية سكان المشتى قد غادروا ولجؤوا إلى تونس، وآخرون التحقوا بالجبال ولم يبق هنا سوى العجزة العزل والنساء الأرامل، ما عسانا نفعل؟ ما عسانا نأكل؟ إلى أين سنذهب؟ حاليا، في الصبح نتوجه للتسول من باب إلى آخر، وفي المساء ننام في الغابة بين الأشجار لأننا ببساطة لا نملك مأوى. من سيؤوينا بعد اليوم؟

إنّ الله لا يرضى بمثل هذا الظلم.

إمضاء: السيدة رابحة بنت فجري، السيدة كشوني، السيدة مسعودة شادلي، الآنسة فاطمة مشري، السيد أحمد شادلي، السيد إبراهيم شادلي، السيد حسين خشوني، السيد عبد الله خشوني، السيد الأخضر خشوني، السيد علي خشوني، السيد بولعراس شاوي، السيد أحمد شاوي، السيد حمادي شاوي، السيد بلقاسم بن علي، السيد محمد عبدي، السيد علي عبدي.

4.3. رسالة من قرية قبائلية إلى المحامي جاك فارجيس

المصدر: مجلة *أزمان عصرية* (*Les Temps Modernes*)، عدد 166، ديسمبر 1959.

ذات يوم أُخرِجْنا من مساكننا على الساعة الخامسة صباحا. كسروا أبواب منازلنا وكان الويل لمن تردد عن الخروج بعد الإنذارات برشاشات مهيأة لإطلاق الرصاص في أية لحظة. جمّعونا في الساحة بالدفعات والركلات لتسريع التجمع، ولم يستثن عنفهم حتى الأطفال في السابعة أو الثامنة من العمر. كنت أجهل تماماً كنا سنؤول إليه. أرغم هذا بعض السكان على ارتداء قميصٍ فقط.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

دام تفتيش المنازل نصف ساعة تقريبا، وبعدها قادونا جميعا – حتى الأطفال والشيوخ – إلى قرية صغيرة مجاورة، ثم أدخلونا إلى بيت يملكه معلم متقاعد. كنا محشورين بسبب ضيق القاعة.

دخل علينا مساعد وأعينه تبرق كأنه وحش كاسر على وشك الهجوم على فريسته، فبدأت الاستجوابات. كان كل سؤال مرفوق بلكمات وضربات بالهروات وكلما سقط الضحية كان يُضرب بالركلات. وبعد أن تعرض خمس أو ست ضحايا لهذا الاستجواب دون نتيجة، دخل المساعد القاعة وهو غاضب جداً، فقال لنا: «أعطيكم عشر دقائق لإفشاء أسماء الفلاقة [المجاهدين] ومخازن السلاح والملاجئ. وكل من ينطق سينقل مع عائلته إلى العاصمة.»

بعد مرور العشر دقائق بدأ مشهد رهيب: قضبان حديدية تُسخَّن في نار كبيرة أشعلت في الفِناء بأثاث البيت، وبطاريات الكهربائية تُهَيَّأ. دخل المساعد الدموي وأخذ شاباً في سن الرابعة عشر اسمه محمد أُورمضان وبدأ ينزع عنه ثيابه بسكين المظلِّيين. فمزق له سرواله وقميصه من أعلاهم إلى أسفلهم، ثم أوثق يديه من الخلف وقيّد رجليه. ثم وضعوه على بطنه فوق لوحتين خشبيتين، الأولى تحت صدره والثانية تحت فخذيه. وبدأ محمد يصيح لما شرع أربعة مظلِّيين في تعذيبه، فكان أحدهم يحمل سِكّيناً، والثاني جهازاً كهربائياً، والثالث قضيباً حديدياً محمّى والرابع بَلْطةً. كانوا يقومون بمهتهم المشؤومة بالتناوب. وبعدما فقد محمد أُورمضان المسكين وعيه حمله اثنان من المظلِّيين ووضعاه في ركينة الفناء. كان في حالة يرثى لها ومحزنة جداً. بعد ذلك دخل عدة مظلِّيين القاعة وأمرونا بإعطائهم كل أغراضنا – ساعات يد وأموال وخواتم وكَنْزات صوفية – وهددوا كل من يخفي بعض هذه الأشياء.

دخل المساعد السفاح من جديد وأمر محمد السعيد بالقيام. كان محمد السعيد في سن الأربعين وأباً لخمسة أولاد، منهم اثنان في سن الثامنة والعاشرة كانا معنا في القاعة. وما كادت تمر دقيقة حتى رأيت محمد سعيد المسكين عاريا وملقى على بطنه مثل محمد أُورمضان. وبدأ السيد السعيد يصيح من الألم. كان الأطفال وكل الحاضرين يبكون لرؤية هذا المشهد المرعب. كان الجلادون الأربعة يقومون بعملهم الدنيء. تعرض محمد السعيد لضربات بالبلطة على الرأس وللحرق بالقضيب الحديدي المحمّى وللصعق الكهربائي، فكان الدم ينزل من أذنيه ومعصميه وأرجله. وبعد حوالي أربعين دقيقة ساد في المكان صوت صياحه وأنينه الطويل. وبعد لحظات نقلوه إلى وسط قاعتنا فوق مِنْقَلة. كان المنظر جد بشع، فكنا نظن أننا في عالم آخر.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

توجه إلينا السفاح وقال: «انظروا، لديكم ربع ساعة للنطق وإلاّ فهذا مصيركم واحداً تلو الآخر.» وبعد مرور ربع ساعة أخذ السفاح ب. السعيد الذي كان في سن السابعة والثلاثين وأباً لأربعة أطفال. كان أحد أطفاله حاضراً معنا وعمره سبع سنوات. وُضِع ب. السعيد في نفس الوضعية التي طُرِح فيها المعذَّبين السابقين ثم بدأت المجزرة. كان ب. السعيد يصيح ويتوسل دون جدوى، وكان الدم ينزف من كل جسده، وانتشرت رائحة الجلد المشوي. بعد ذلك اقتُلعت عينه اليمنى وكُسرت أسنانه وضُرب رأسه عدة مرات بالبَلْطة. ثم بدأت صيحاته تنخفض وكان يبدو وكأنه يتلفظ باسم زوجة قائد الكتيبة.

رفعه مظلِّيّان من ذراعيه وأوقفاه ووضعا على ظهره بُرْنُس. كان باقي جسده عارياً منظر لا يطاق. فأخذوه لِيَدُلّهم على تلك المرأة: السيدة علجة ب. في سن الثلاثين تقريبا، وهي أم لأربعة أطفال صغار وحامل في الشهر السابع. لقد وجدوها في بيتها مع نساء أخريات. ومعروف أنّ المظليين يمارسون كل أنواع التعذيب والاغتصاب والسرقة والقتل. وبعد أن قلعوا ابنها في سن الثانية من يديها ورموه في الأرض، انهالوا عليها ضربا بالهراوات ومزقوا ثوبها من أعلاه إلى أسفله بالسكين وأخذها مظليون من يديها ثم قابلوها بالسيد ب. السعيد.

بعد ذلك أخذوهما عريانين إلى بيت الموت، فوضعوا السعيد بجانب وطرحوا السيدة علجة في مكان التعذيب. كانت تصيح وتئِنُّ كثيراً. في ذلك الحين وصل الملازم الأول فوجد هذه المرأة المسكينة في تلك الحالة المحزنة، فأمر توقيف كل شيء وطلب معلومات من النقيب في مركز القيادة الذي قال له بأنها حامل. وبعد حوالي دقيقتين أُطلِق سراح علجة؛ رأيتها خارجة من قاعة التعذيب.

غير أنّ تعذيب السعيد المسكين – الواش بعلجة – تواصل. كان ملقى على الأرض – لا يتحرك تقريبا – فاقترب منه مظلِّيي يحمل خنجر وقتله بضربة واحدة شقته من فكه إلى صدره. لقد زُلزلنا زِلزالا شديداً من بشاعة المنظر.

دخل علينا المساعد السفاح من جديد وأخذ أ. ك. قاسي، وهو في سن السادسة عشر، بحضور والده المعتوه من رجله الذي كان عاجزاً على إبداء اعتراضه. لا أستطيع وصف الحالة التي كنا فيها. بعدما طُرِحَ الشاب قاسي على مكان العذاب، بدأ يصيح مما أبكى كل المعتقلين. وبعد ربع ساعة خمدت هذه الصيحات، فصّبوا الماء على وجهه لإيقاظه. وما أجدى ذلك أية جدوى لأن قاسي المسكين كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

كانت الساعة حوالي الخامسة حين دخل علينا الجلادون الأربعة، فقال أحدهم: «لقد قررنا معاملتكم هكذا وسنفعل نفس الشيء في كل البلد.» وقاموا بأخذ الرجال فظننا أنهم على وشك تعذيبهم كلهم، غير أنه مع حلول الليل دخل علينا الملازم الأول وقال أنّ باستطاعتنا الرجوع إلى بيوتنا. ووضعوا الجثتين على عربة وأخذوها إلى أسفل القرية ثم رموها في المزبلة العمومية.

بعد ابتعاد المظلِّيين من القرية بحوالي كيلومتر واحد في طريقهم نحو مركز القيادة، اجتمع أهالي وأقارب الضحايا، وذهبوا لاسترجاع الجثث. فوضعوا عليهم أغطية ثم دفنوهم ليلا. كان ذلك المنظر محزناً جداً.

دام هذا التمشيط خمسة عشر يوماً بمنطقتنا: بلدة آيت يحي. لقد استهدف هذا التنكيل كل القرى في المنطقة. لقد تعرض بعض سكان هذه القرى للإيغار في الماء المالح المغلى، وذبح معظمهم بعد أيام من التعذيب الوحشي. فمثلا ذبح خمسة عشر ساكن في بلدة كولو بعد أن عذِّبوا، وثلاثة عشر في بلدة زيري، وتسعة في بلدة قوفاف، وإحدى عشر في بلدة بوتشو، وسبعة في بلدة تازيلد، وستة في بلدة تيفيقوط. وفي غضون هذا التمشيط قتلت سبعة وثمانون دابة بالرصاص في قريتنا فقط.

لا أستطيع أن أحصي كل ضحايا هذا التمشيط. ولو حقق الصليب الأحمر الدولي في القرى مع الناجين من التعذيب والقتل لاستطاع أن يجمع معلومات تزعج الإنسان الحر المتحضر، ولأوقف ما فعله هؤلاء المظلِّيين بالسكان.

يستحيل لكل إنسان متحضر، سواء كان مسيحيا أم مسلما أم يهوديا، أن يتقبل هذه الوحشية المطلقة التي يتعرض لها سكان منطقة القبائل على يد هؤلاء المظلَّيين السفاحين. إنهم يخلفون وراءهم الرعب والذعر.

إنّ عذاب الله ينتظرهم.

5.3. أحد موظفي التعذيب يقص...

المصدر: فانسون جوفر، *نوفال ابسرفاتور*، عدد 1884، 14 ديسمبر 2000.

لم تكن هذه الوثيقة في بداية الأمر مخصصة للنشر. كتبها سنة 1977 أحد أخصائيي التعذيب أثناء حرب الجزائر، وقد توفى منذ سنوات قليلة هذا الرجل الذي كان يحرص على الإبقاء على هويته مجهولة. لقد قدم من خلال هذه الوثيقة تفاصيل الممارسات وأساليب عمل

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

المصلحة الخاصة الذي اشتغل فيها طيلة خمس سنوات: «الدي. أو. بي» تُقرأ «دوب» وهي كلمة مركبة من أوائل حروف كلمات فرنسية[12] تعني مُفْرَزَة عملياتية للحماية. وأنشِئت هذه الهيئة العسكرية الاستعلامية سنة 1956 وباشرت نشاطها عام واحد بعد ذلك، وكانت مهمتها تتمثل في تفكيك شبكات جبهة التحرير الوطني السرية باستعمال كافة الوسائل. أول من وُجّهت إليه هذه الوثيقة من عشر صفحات هو الصحافي الكاتب جان بيار فيتوري. فبعد عشرات الجلسات مع صاحب الوثيقة حوّل فيتوري شهادته إلى كتاب مدهش نشره سنة 1980 بعنوان «مارسنا التعذيب». ووافق صاحب الوثيقة على تسليمنا العشر صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة التي حصل عليها سراً سنة 1977. كان يقول «حان الوقت»، وأنه سيقدم – عند الاقتضاء – الوثيقة بأكملها إلى لجنة رسمية حول التعذيب في الجزائر. وفي ما يلي أبرز فصول الوثيقة.

حياة انعزالية

تتشكل المُفْرَزَة العملياتية للحماية من ضابط – برتبة نقيب في غالب الأحيان – واثنين أو ثلاثة ضباط مساعدين، ومن أربعة أو خمسة ضباط صف، ومن خمسة عشر إلى عشرين جندي احتياطي. [...] كل مُفْرَزَة عملياتية للحماية تضم في صفوفها مترجماً واحداً أو أكثر يُجندون بالعادة من «الأقدام السوداء»[13] أو من الاحتياطيين من نفس الأصل أو «المقلوبين» من جبهة التحرير الوطني أو الحَرْكة.

كان هؤلاء الموظفين يعامَلون بصفة تفضيلية، خاصة الاحتياطيين منهم. فلم يكن الانضباط صارما إزاءهم، وكانوا يتمتعون بنوع من الحرية، ولديهم الاختيار في الاحتفاظ بلباسهم المدني خلال الخدمة وامتيازات عينية أخرى تمولها «الخزينة الخاصة»: هدايا عيد الميلاد، وطعام أفضل مما يحصل عليه باقي رجال الفرقة، وإعفاء من الحراسة وكل السُخْرات التقليدية داخل الحامية، ونادي–مشرب غني بكل ما لذّ وطاب.[...]

وشُيدت مباني المُفْرَزَات العملياتية للحماية لتتماشى وطبيعة المهمة، فغالبا ما كانت عبارة عن فيلا فسيحة وبعيدة عن أيّ مخيم عسكري، وسرعان ما تعوّد الموظفون على العيش في «حوجلة» والانعزال عن مخالطة باقي رِفاقهم في الهيئات العسكرية الأخرى. [...] غالبا ما كانت هذه المُفْرَزَات العملياتية للحماية تتوفر داخل ملحقات المساكن على خراف ودواجن وأرانب صادرها الجند لتحسين وجباتهم.[...]

[12] Détachement Opérationnel de Protection (DOP–الدوب).

[13] أوروبيون الجزائر أي سكان الجزائر من أصل أوروبي.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

كان الضباط وضباط الصف يستفيدون ببطاقة «جواز المهمة» دائمة عليها صورهم مشطبة بشريط ثلاثي الألوان فرنسي. فكان هذه الجواز يعطيهم صلاحيات تمكنهم من نقل أشخاص من الجنسين على متن أية سيارة، وذلك دون الحاجة إلى التصريح بهويتهم أو شرح سبب وجودهم أو اتجاه مشوار سيارتهم عند حواجز المراقبة العسكرية. فليس تصوّر التعسف الذي أتاحته هذه الجوازات بصعب، خاصة إزاء النساء. [...]

التعذيب الصناعي

أتذكر أني تصفحت ملفا كثيفا يحتوي على تعليمات ومذكرات عمل وُجِهَت إلى المِفْرَزَات العملياتية للحماية عند إنشائها. أتذكر إحدى تلك التعليمات المختصرة والموقعة من قبل سلطة عسكرية لا أتذكر اسمها، فكانت تشدد على «وجوب إدارة الاستجواب بطريقة تحترم كرامة الإنسان.» ، بالطبع لا داعي إلى الإشارة إلى أنّ هذه التعليمة بقيت حبرا على ورق وتم طمرها.[...]

لا بد من الاعتراف أنّ ممارسة التعذيب في الجزائر سبقت إنشاء المِفْرَزَات العملياتية للحماية، فقد كانت ممارسة عادية عند فيالق العساكر وذلك منذ وصول الحملة العسكرية.[...] لم يكن التعذيب آنذاك إلاّ ترقيعاً وارتجالاً يشبه الصناعة اليدوية، وفضلا عن ذلك كان التعذيب مسألة فضفاضة المعنى وغامضة المعالم. هل يمكن اعتبار اللطمات الخاطفة والركلات تعذيبا...؟ ولكن إنشاء المِفْرَزَات العملياتية للحماية أدّى إلى تطوير التعذيب إلى ممارسة عقلانية وفعّالة. إنّ إنشاء هذه المِفْرَزَات صنَّع التعذيب.

بالطبع لم يكن التعذيب موجودا رسمياً ولا شبه رسمياً. خلال سبعة سنوات قضينها في الجزائر لم نسمع قط أحداً تفوه بهذه الكلمة ولو مرة واحدة.[...] لم يكن هناك لا تعذيب ولا تنكيل ولا جلادين أو معذِّبين، بل ولا حتى معذَّبين ولا مُنكَّلٌ بهم. لم يكن هناك إلاّ «استجوابات» و«مستجوِبون» و«مستجوَبون». كان نسق هذه الاستجوابات حاذقا حيث يتراوح من الاستجواب «البسيط» أو «الروتيني» إلى الاستجواب «الموسّع» أو «المعمّق» أو «الموسّع جدا». فمماثلةً مع العصور الوسطى كانت هناك «المسألة العادية» و«المسألة الخارقة للعادة».

لجأت المِفْرَزَات العملياتية للحماية في بداية إنشائها إلى تقليد طرق تعذيب باقي فيالق العساكر: الرفس والتنكيل «تليفون البادية أي.أي.8»،[14] و«الإناء المعدني» للمياه. ثم بدأ

[14] Telephone EE8.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

شيئاً فشيئاً عهد الابتكار وتجريب وسائل أكثر فعالية، فحدث تطور ملموس في هذا المجال... وتمكن الجلادون من تحسين أداء هذا الفن. فمثلا لُوحِظ أنّ المولّد الكهرطيسي (gégène) ينتج تيارا كهربائيا أقوى من ذلك الذي يولده هاتف البادية إي إي 8. لم تكن هذه الأجهزة متوفرة لدى المفْرَزَات العملياتية للحماية مما اضطرهم إلى استعارة هذه الأجهزة من أقرب مصالح الاتصال.

كانت المفْرَزَات العملياتية للحماية تتبادل بينها «الأسرار» المفيدة حول طرق الاستنطاق. كان هناك مدارس «فكرية» مختلفة في هذا الشأن، منها من يحبذ استنطاق «المعالَج» وهو في وضعية أفقية وعار تماما ومقيّد على سرير بيكو أو على خشبة، ومنها من يفضل إجراء الاستنطاق في وضعية عمودية يقيّد فيها المعالَج بحلقات مثبتة على جدار في وضعية سمّيت وضعية «الشمس». وعرفتُ أحد الضباط الذي كان يوصي بإدخال «الدولبيك» (وهي مادة مصرفة شديدة المفعول) في دبر المعالَج.[...] كما تم استعمال الملحام بتوجيه شعلته نحو الأرجل، وكذا وُضع قطن مبلل بكحول لَهوب فوق الأعضاء التناسلية، والحرق بالسجائر. لن يتّسع مجلد بحاله للأسف لحصر كل ما مورس من أصناف تعذيب.

كانت طبعا عملية تغيير الطرق جارية، أثناء الاستنطاق، مع كل ما يتضمن ذلك من ابتكار وارتجال واختراع في هذا المجال، وكل وسيلة مستحدَثة كان يُرحّب بها.[...]

تتمثل أكثر الطرق كلاسيكيةً فيما يلي: يتم تقييد المعالَج وهو عار كليا على خشبة أو فوق باب ممددة أفقيا. ثم يُثبّت خيط الهاتف أو الجهاز الكهرطيسي حول أذنه. ويوضع الخيط الثاني على العضو التناسلي. يُشَغِل «المعالِج» حينها الجهاز بينما يرصد المستنطِق الاعترافات مستعينا بمترجم. وكانت الاستنطاقات «الموسعّة» تقتضي تركيب هذا «العلاج» مع الخنق بالماء حيث يبتلع «المعالَج» من 15 إلى 20 لتر من الماء. كان التبليع يتم إما بقِمْع وإما بمنشفة على الفم والأنف في ذات الوقت. غالبا ما كان هذا التعذيب ينتهي إلى موت المعالَج من جراء تمزق معدته أو احتقان بسبب تسرب الماء داخل الرئتين. كان بعض «المعالِجين» يخلطون بالماء مواد التنظيف مثل التيبول والمير أثناء التعذيب مما كان يؤدي إلى موت المعالَج حتماً.

غالبا ما كانت قاعات الاستنطاق مرتبة داخل أقبية المفْرَزَات العملياتية للحماية أو بغرف معزولة تُخمد صراخ المعذّبين. وكانت بعض المفْرَزَات العملياتية للحماية تتوفر على قاعات استنطاق مُخْمدة الطَّنين ومُحكَمة السَّد.[...]

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

الروائح الفظيعة للأجساد المعذَّبة

تجري «الاستنطاقات الموسعة جدا» في أغلب الأحيان ليلا، فيُنتزع المعالَج من فراشه بطريقة مفاجئة ثم يُسحب خارج زنزانته ليخضع للاستنطاق.[...] من مرّ بمثل تلك التجربة وسط ذلك المناخ المشحون داخل قاعة الاستنطاق، لا بد أنه سيتذكرها إلى الأبد...

يسود الهواء المثقل بدخان السجائر، والرائحة الفظيعة المنطلقة من أجساد المعذَّبين التي ترشح عرقا والمختلطة بروائح البراز (عملية فيزيولوجية معتادة تحدث أثناء التعذيب الجسدي) والبول، إضافة إلى الصراخ والعويل والتضرعات وأصوات الضربات على الأجساد... كثيراً ما كان المستنطِقون يأخذون فترات استراحة يشربون خلالها الخمر والجعة بكميات هائلة ويدخنون كذلك بصفة مبالغ فيها (كان لا بد من «تخدير» لتهدئة الأعصاب)، ثم يستأنفون التعذيب. كانت هذه «الاستنطاقات» تبدأ أحيانا على الساعة التاسعة ليلا لتنتهي على الرابعة أو الخامسة فجراً.[...]

بالنسبة للمستنطِقين كانت أصعب الأوقات تبدأ في النصف الثاني من الليل، إذ تكون حينها أعصابهم مهيجة بفعل الكحول وقلة النوم والإرهاق والرغبة في الحصول على معلومات بأيّ ثمن كان، مما يجعلهم يكثّفون الضرب؛ كانت حينها وتيرة التعذيب تتفاقم.[...]

تُمكِّننا تجربتنا الحزينة في هذا المجال من الجزم بأنّ المعلومات المنتَزعة عن طريق التعذيب، بغضّ النظر عن الجانب الأخلاقي، كانت جد هزيلة. ومن السهل إدراك ذلك، فالمعذَّب يعترف بأيّ شيء من أجل الاستراحة من عذاب لا يُطاق والحصول على قسط من الراحة، ولو وجيز.[...] كما استخلصنا الدروس التالية: إن الإنسان الخشن، والبدائي وقليل التعلُّم يتحمل التعذيب كثيراً وينطق قليلاً. لقد شاهدنا جامعي الأموال لجبهة التحرير الوطني يفضلون الموت على الاعتراف. أما الإنسان الأكثر تحضرا، الطالب المثقف بالفرنسية مثلاً، فكان أضعفهم حيث ينفر جسدياً من كل أنواع العنف.[...] كان يدلي بالقليل من المعلومات الصحيحة ليُصدَّق ولكن كان يحشر تلك الإفادات بكثير من الأكاذيب.

كان استنطاق النساء شيء مرعب! لم تعفى النسوة من التعذيب [...] الذي كان من الدرجة الأولى. كان «الهاتف» يُمارس بالأسلوب التقليدي: أحد الأسلاك يُشد حول أذنهن والآخر يوضع داخل فروجهن، وكنّ يعذبن عاريات كليا بالطبع. كانت هذه النسوة

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

أكثر حيلة من الرجال، فكانت تسهب في الكلام بغية «خلط الأوراق»، فتغرِّقن قِلَّة من الحقائق في محيط من الأخبار الزائفة.

يبدو أنّ الاغتصاب كان نادراً، على الأقل إذا نسبنا له مفهومه الحقيقي، أي اعتداء جسدي عنيف. لما كان أحد المستنطِقين يرغب في إحدى النسوة، لم يكن في حاجة إلى اللجوء إلى الاعتداء الجسدي، فكان يكفيه ممارسة نوع من الضغط النفسي كالتلويح باحتمال الإفراج كي يحصل على ما يريد.

كنا نعرف أكثر مما يجب

كان التعاطف مع سجين يُعتبر خطأ خطيرا، وكان تقديم كأس من الماء لأحد المعذَّبين هو الآخر إثماً خطيراً. ورغم ذلك لم يُعاقب أيّ مخطئ أبداً داخل مُفْرَزَة عملياتية للحماية، فكنا «ننظف الغسيل القذر داخل البيت».[...] ما غادر أحد مُفْرَزَة عملياتية للحماية أبداً، فلم يتخلّ أحد عن هذا «الدكان» أبداً. كنا نعرف أكثر مما ينبغي، وشاهدنا أكثر مما يجب، فكان مركز التنسيق بين الجيوش (السي سي إي[15]) يفضل إبقاءنا في حضنه لتفادي أيّ إشهار محرج.[...]

كان عالم المفْرَزَات العملياتية للحماية عالماً غريباً، فكان عبارة عن عويلم منعزل انقلبت وشوهت فيه كل القيم.[...]

بما أنّ السجناء والسجينات كانوا يمكثون بعض الأحيان طويلا داخل المفْرَزَات العملياتية للحماية، كانوا يستخدمون لأشغال مختلفة: سخرة التنظيف، وغسل أواني وملابس موظفي المفْرَزَات العملياتية للحماية... لهذا كانوا يتمتعون بشبه حرية داخل المباني.[...] كانوا "رفقاء" الحياة اليومية إن صحّ القول.[...] كان للمُفْرَزَة العملياتية للحماية مَيْل واضح إلى تعريض السجين للشبهات وإلى تلويثه وتوريطه إلى أقصى حد ممكن إزاء جبهة التحرير الوطني. فكان يتم ذلك مع سجناء آخرين، وبمشاركته في حصص التعذيب وحتى بحمله على تعذيب جزائريين آخرين. كان السجناء المورَطون إلى هذا الحد يتضّرعون من أجل البقاء في المفْرَزَات العملياتية للحماية، فيفضلون ذلك على أن يطلق سراحهم.

أخيرا، هناك «سخرات الغابة» الشهيرة، لقد استُعملت مع السجناء المتعذر استردادهم (الميؤوس من ترويضهم).[...] كان قائد المفْرَزَة العملياتية للحماية أو أحد معاونيه يخرج

[15] Centre de Coordination Inter-Armées (CCI)، وهو مركز قيادة المفْرَزَات العملياتية للحماية.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

ليلاً ومعه السجين على متن سيارة الجيب، فيأخذه إلى منطقة معزولة أين يطلق عليه وابلاً من الرصاص من الخلف، ثم تدفن الجثة لتوها في نفس المكان من قبل عناصر «سخرة» تكون عُينت لهذا الغرض، فتُمحى آثار القبر بدقة.[...]

كل الإجراءات والضلالات التي أحصيتها كان يجب أن تقوم بها هيئات جد مختصة تابعة لمصلحة التوثيق الخارجي والتجسس المضاد (السداس[16]) أو أن يقوم بها موظفون محترفون. ولكن لم يكن ضباط المدفعية من باريس وضباط الصف مهيئين لمثل هذه المهمة، ناهيك عن الجنود الاحتياطيين الصائرين إلى «المعالجة» وممارسة التعذيب!

اطلعتُ على بعض حالات تأنيب ضمير، لكن للأسف اعترفُ أنها كانت نادرة، فالمرء يتعود على كل شيء، وحتى على البشاعة! كنا نشعر بالسخط أحيانا والقَرَف دائماً غير أننا انتهينا إلى التعوّد على سماع الصراخ، وأنين المعذَبين.[...] لقد دخل الجنود الاحتياطيون في دوامة جهنمية وتشبكوا في مُسننة. في آخر المطاف كل ما ينتظره الجندي الاحتياطي هو انتهاء فترة الخدمة العسكرية، وبالنسبة له المكوث في المِفْرَزَة العملياتية للحماية أفضل من المحاربة التي يقوم زملاؤه في الجبال. إضافة إلى هذا، طالما تمت الموافقة على هذه الوسائل من قِبل أعلى القيادات الأخلاقية والعسكرية... هل يمكن له أن يكون مَلكي أكثر من الملك نفسه؟

لقد تمت إعادة تنظيم المِفْرَزَات العملياتية للحماية في خريف سنة 1959، واستُبدلت تسمية المِفْرَزَة العملياتية للحماية بـ«كتيبة المشاة».[...] بالطبع إنّ هذه التسمية هراء فكانت هذه الكتائب تحمل أرقام فيالق تم حلها بغرض التمويه، لأنه لا علاقة بين كتائب المشاة هذه والمهام التقليدية للمشاة.[...]

معروف أنه يوجد العديد من الروابط التي تجمع قدامى من فيلق المشاة هذا أو فيلق المدفعية ذاك، لكن على حد علمي لا يوجد ولا رابطة واحدة تجمع قدامى مركز التنسيق بين الجيوش والمِفْرَزَات العملياتية للحماية. فلم نكن رفقاء في الحقيقة، بل كنا متواطئين وشركاء (في الجرم)، وكنا نشعر بذلك بطريقة يلفها الغموض.

قمنا بعمل قذر لم ينفع قط في تحقيق أيّ شيء. وتكلل عملنا بهزيمة مدوية أمام عزيمة شعب بأكمله. فبقينا لوحدنا معزولين نعانق ذكرياتنا، ذكرياتنا الفظيعة.

[16] Service de Documentation Extérieure et du Contre-Espionnage (SDECE).

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

4. الجزائر أمام المعذِّبين الفرنسيين

المصدر: فرنتز فانون؛ *المجاهد*، رقم 10، سبتمبر 1957.

منذ ثلاث سنوات شرعت الثورة الجزائرية في تهديم منهجي لعدد من الأساطير من خلال الدفع الإنساني العميق الذي ينشّطها وتعلّقها الوجداني بالحرّية.

لا جَرَم أنّ الثورة الجزائرية تردّ إلى الوجود الوطني حقوقه، وصحيح أنها تشهد بالفعل على إرادة الشعب، غير أنّ فائدة ثورتنا وقيمتها تكمن في الرسالة التي تحملها.

إنّ تعميم الممارسات الجدّ بشعة التي ظهرت منذ أول نوفمبر 1954 جد مدهشة. في الواقع إنّ موقف الفرق العسكرية الفرنسية في الجزائر يندرج في هيكلة تمارس الهيمنة البوليسية والعنصرية المنظمة وتنزع الإنسانية بقصد وتعمد. وإنّ التعذيب ظاهرة باطنة في الجهاز الاستعماري.

إنّ قصد الثورة الجزائرية من تحريرها التراب الوطني يهدف إلى القضاء على هذا الجهاز وإلى تشيّيد مجتمع جديد. ولا يهدف استقلال الجزائر إلى نهاية استعمار فقط، بل يرمي إلى اِسْتِئْصَال بذرة الغرغرينية ومصدر الوباء في هذه البقعة من العالم.

إنّ تحرير التراب الوطني الجزائري يمثّل هزيمة للعنصرية ولاستغلال الإنسان ويفتتح عهد العدالة بلا قيد ولا شرط.

التناقض الحقيقي

غالباً ما تُصوَّرُ الحروب التحريرية الوطنية على أنّها تعبير للتناقضات الداخلية للبلدان الاستعمارية، غير أنّ الحرب الفرنسية الجزائرية لها مميزات خاصّة تندرج في إطار تاريخي يتميَّز بظهور حركات تحرّرية وطنية متزامنة ومتتالية.

ولكونها مستعمرة إسكان اعتبرتها فرنسا جزءاً لا يتجزأ منها، عاشت الجزائر تحت هيمنة بوليسية وعسكرية لا مثيل لها في أيّ بلد مستعمَر آخر. ويعود السبب أولاً إلى أن الجزائر لم تتوقف عن القتال تقريباً منذ 1830، كما يرجع إلى أهمية الجزائر داخل معسكر فرنسا الاستعماري. ولا يوجد تفسير لعناد فرنسا ولجهودها الهائلة ماعدا يقينها أنّ استقلال الجزائر سيؤدي عاجلاً وحتماً إلى انهيار إمبراطوريتها.

ولموقعها في بوابة فرنسا، تسمح الجزائر للعالم الغربي بتتبع تناقضات الوضع الاستعماري بالتفصيل وبِبُطْء.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

إنّ اللجوء إلى وحدات القوات المسلحة الفرنسية، وإلى تجنيد الجنود من فئات عديدة، وإلى إعادة استدعاء الضبّاط وضبّاط الصف، وإلى دعوة الشعب تكراراً، وإلى الضرائب وتجميد الأجور، كل ذلك ألزم الأمّةَ الفرنسية كلها بخوض هذه الحرب لإعادة الاحتلال الاستعماري. إنّ مشاركة العمّال والفلاحين الفرنسيين في الحرب ضد الشعب الجزائري تميّز بحماس عام — ودموي أحياناً — زعزع حقّاً أطروحة «معارضة فرنسا الحقيقية فرنسا القانونية» من أسسها. فكما قال أحد رؤساء المجلس الفرنسي: «قد تآلفت الأمّة مع جيشها الذي يحارب في الجزائر.»

إنّ كل الفرنسيين يشاركون بذمَّتهم وضميرهم في حرب ضد الجزائر. أمّا الانتقادات القليلة التي أصدرها بعض الأفراد فهي تنتقد الوسائل «التي تعجّل إضاعة الجزائر فقط»، ولا تندّد بإعادة الاحتلال في جوهره، ولا بالحملات العسكرية ولا بمحاولة خنق حرية شعب.

التعذيب ضرورة أساسية للعالم الاستعماري

كثُر الحديث منذ فترة عن ممارسات التعذيب من طرف الجنود الفرنسيين على المواطنين الجزائريين، ونُشرت نصوصٌ دقيقة ومروعة في الموضوع، كما طُرِحت مقارنات تاريخية عديدة. لقد أدان عدد من الشخصيات الأجنبية بما فيها الفرنسية تلك الممارسات.

وما فتىء بعض الفرنسيين الذين ثاروا ضدّ ممارسات التعذيب أو ضدّ انتشاره يذكروننا بالنفوس الطيّبة التي تحدّث عنها الفلاسفة، وتناسبهم تماماً تسمية «المثقفين المتعبين» التي أطلقها عليهم مواطنوهم لاكوست وليجان. فعلا لا يمكن الوفاق بين الرغبة في الحفاظ على الهيمنة الفرنسية في الجزائر وبين إدانة الوسائل التي يستطلبها ذلك.

ليس التعذيب في الجزائر بصدفةٍ أو غلطةٍ أو زلّةٍ. ولا يُدرَكُ الاستعمار بدون إدراك قدرته على التعذيب والاغتصاب والإبادة. إنّ التعذيب نمطٌ من العلاقات بين المسْتَعْمِر والمسْتَعْمَر. وهذا لا يجهله رجال الشرطة الفرنسيين — الذين مارسوا التعذيب لمدة طويلة — مما حملهم على اعتبار ضرورة تسويغ ممارسة التعذيب أمراً فاضحاً وغريباً.

التعذيب أسلوب حياة

وفضلاً عن ذلك فإنّ النظام الاستعماري له أعْراضُه وتعطُّلاتُه، وفي تحليلها أهمية قصوى.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

فخلال الربع الأول من عام 1956 وصلت حالة عدد كبير من رجال الشرطة إلى حافة الجنون. فأحصيت حالات الاضطراب داخل الوسط العائلي (مثل تهديد الزوجات بالقتل وضرب الأطفال ضرباً مبرحاً) والسُهاد والكوابيس، ومحاولات الانتحار المتكررة، ووقعت أخطاء مهنية منها المشاجرات بين الزملاء والتهاون أثناء العمل والخمول أثناءه، وعدم احترام القادة. فاقتضت كل هذه الحالات العلاج الطبّي مراراً والتعيين في مصالح أخرى أو النقل إلى فرنسا.

إنّ ظهور عدة منظّمات ثورية نشطة، وردود أفعال فدائيينا الصاعقة، وانتشار خلايا جبهة التحرير الوطني على مجمل التراب الوطني، كل ذلك أثار مشاكل عويصة للشرطة الفرنسية. إنّ الاحتراس المستمر الذي فرضته عليهم جبهة التحرير الوطني هو السبب في تَهَيُجيّة وقلق الشرطة الفرنسية. فمعالجة رجال الشرطة تكشف ذلك. فإنهم يضربون أطفالهم بقسوة بسبب تَخْيِلهم أنهم مازالوا يتعاملون مع الجزائريين، ويبوحون بتهديد زوجاتهم بسبب تطبّعهم على العنف («أضرب زوجتي لأني أهدد وأنفذ طول اليوم »)، كما ينسبون سُهادهم إلى سماع صراخ ضحاياهم وبكائهم.

وتُثير هذه الأمور بعض المسائل طبعاً. أنحن أمام رجال يعذّبهم النّدم؟ أهذا تأنيب الضمير؟ أتشكّل حالات التعذيب التي اعترف بها رجال الشرطة حالات استثنائية؟ ألا يدل وصول رجال الشرطة إلى حد الأمراض العصبية على أنّ التعذيب ممارسة استثنائية وغير قانونية؟ وبعبارة أخرى: هل الجلاد الشرطيّ في تناقض مع «قيّم» مجموعته و«قيم» النظام الذي يدافع عنه؟

بعدما أنكر الفرنسيون ممارسة التعذيب في الجزائر، لجؤوا إلى حجة مزدوجة، فقد أكدوا في البداية أنّها حالات استثنائية. إنّ تقبّل هذه الأكذوبة يمثل أكبر تخاذل للمثقفين الفرنسيين. وقالت الحكومة الفرنسية أنها ستتخذ العقوبات اللازمة، غير أنها نفت لزوم إعلان ذلك وكأنّ تعذيب شخص أو مجزرة منظّمة لا يخضعان للقانون الجنائي العام. فمن المستحيل أن يُوفَّق بين الإدعاء بالرغبة في الحقيقة والعدل، من جهة، وتقبّل مثل هذا الخداع، من جهة أخرى.

الهروب من المسؤولية

بعد ازدياد عدد الشهادات أكثر فأكثر تكشّفت عدم استثنائية هذه الممارسة، ولجأ الفرنسيون إلى اتهام العناصر الأجنبية العاملة داخل الجيش الفرنسي. هذه الحجة الثانية هامّة لأنها تبيّن وقاحة السلطات الفرنسية من جهة، وصعوبة المكر والإخفاء والكذب

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

المتزايدة، من جهة أخرى. فمنذ سنة مازال الفرنسيون يكررون أنّ عناصر الب.ع.[17] التابعة للفرق الأجنبية في الجيش الفرنسي هي وحدها المسؤولة عن التعذيب. ولكن معروف أنّ أغلبية الفارين من الجيش الفرنسي هم عناصر الفرق الأجنبية. إنّ الطرق البوليسية الفرنسية هي الدافع الذي حمل أولئك الألمان والإيطاليين على الفرار من صفوف العدو وعلى الالتحاق بوحدات جيش التحرير الوطني. وقد استجوبنا العشرات منهم قبل ترحيلهم إلى أوطانهم فأجمع كل عناصر الفرق الأجنبية السابقين على أنّ قسوة وسادية القوات الفرنسية فظيعة.

يجدر بالتذكير أنّ بروز المعذِّبين يعود إلى شتاء عام 1955، فالشرطة وحدها مارست آنذاك التعذيب في الجزائر لمدّة سنة تقريباً.

ونملك اليوم معلومات دقيقة عن أساليب التعذيب التي يُمارسها الفرنسيون، فقد نُشرت شهادات عدة، كما فُهْرست قائمة طويلة لوسائل وتقنيات التعذيب. بالرغم من هذا، لم تصدر أية كلمة حول مذهب وفلسفة التعذيب. وإنّ المعلومات التي وصلت إلى جبهة التحرير الوطني توّضح جيداً تَنْهيج هذه الممارسة.

لوفريدو (Lofrédro) وبودفان (Podevin) منظّري التعذيب

إنّ خصائص وسائل التعذيب التي ينتهجها الضابطان في الشرطة الفرنسية لوفريدو (محافظ الشرطة بالعاصمة) وبودفان (قائد الشرطة القضائية بالبليدة) تبرز من توضيحاتهما إياها لأصدقائهما ومن خلال عروض تقنية لمساعديهما الجدد.

1) لما تشير عدة شهادات وتقارير متقاربة من مخبرين إلى أنّ جزائرياً يلعب دوراً هامّاً في المنظمة المحلية لجبهة التحرير الوطني، تشرع الشرطة في توقيفه واعتقاله في مقرات الشرطة القضائية. لا يُستنطق السجين في تلك الفترة من التحقيق لأنّ الشرطة «لا تعلم أيّ اتجاه سيسلكه الاستنطاق ولا نريد أن يدرك المشبوه فيه جهل الشرطة»، حسب الضابطين. وأفضل وسيلة لكسر مقاومته تكمن في طريقة «المباشرة بالمثل».

فتغادر بعض سيارات «جيب» مقر الشرطة القضائية ثم تعود وعلى متنها حوالي عشرة جزائريين تم توقيفهم عشوائياً في الشارع أو في دوار مجاور. بعدها يعذب المعتقلون الواحد تلو الآخر حتّى الموت بحضور المشبوه فيه – وهو مَوْضِع اهتمام الشرطة الوحيد – وبعد خمسة أو ستة اغتيالات يمكن الشروع في الاستنطاق الحقيقي.

[17] البوليس العسكري في التنظيمات النازية سابقا (الآس.آس.).

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

2) أمّا الطريقة الثانية فتقوم على تعذيب المشبوه فيه من البداية، وغالباً ما تحتاج لعدة حصص لاستنفاد طاقته. ولا يطرح على المشبوه أيّ سؤال. ويعترف المفتش بودفان، الذي مارس هذا الأسلوب من التعذيب بشكل واسع في البليدة ثمّ في الجزائر العاصمة، بصعوبة الموقف عند طلب المعذَّب استفسارات، ولذلك يعجّلون في كسر مقاومته. ففي الحصة السادسة أو السابعة يكتفون بالقول له: «لنستمع إليك.» وهذا نوع من الاستنطاق لا يوجّه إطلاقاً، وغالباً ما يُحمل المشبوه فيه على النطق بكل ما يعرفه.

نلاحظ في كلا الحالتين نفس الظاهرة ألا وهي تأجيل الاستنطاق. فلما ينفصل مبرر الغاية أكثر فأكثر من الوسيلة من العادي أن يصبح التعذيب مبرراً لنفسه. فلا ترابط منطقي للنظام الاستعماري إن لم يطالب بالتعذيب كأحد عناصره الهامّة.

المثقفون الفرنسيون والصحافة الفرنسية

شارك السيد ماتيّ في الحملات العسكرية الفرنسية في الجزائر، ونشر مؤخراً بعض الصفحات في مجلة «العصور الحديثة» في عددها الصادر في جويلية–أوت. قال ماتيّ: «أتذكر لما كانت السينما المتنقلة التابعة للفيلق تأتي من حين إلى آخر لِتعرض علينا فيلماً، فلما كان الفيلم ينفّر المِحْضر كان الجنود والضباط يغادرون المكان لقضاء بقية السهرة برفقة المساجين... كانت موسيقى الفيلم تكتُم صراخهم جزئياً.»

وثار ماتيّ في مقاله ضد المساس بكرامة وشرف فرنسا، ثم ختم شهادته بالحجة التقليدية للديمقراطيّين الفرنسيّين فقال: «كيف سيكون الجيل الذي يستخلفه هذا الخليط من الثقافة الموجود اليوم بالجزائر؟» ويواصل ماتيّ فيقول: «إن تحوّل شباب الخدمة العسكرية إلى مرتزقة حقيقيّين في مدة قصيرة أمر خطير جداً.»

إنّ مثل هذا الموقف أحسن نموذج لما ينبغي تسمّيته انحرافاً أخلاقياً. إنّ تنديد المثقفين الفرنسيين على غرار ماتيّ بـ«عملية واسعة لتجريد الشباب الفرنسي من إنسانيتهم في الجزائر» أو تأسفهم على «تعليم الفاشية» لشباب الخدمة العسكرية الفرنسيين كِلاهم يدلان على أنّ شغل هؤلاء الشاغل هو الآثار الأخلاقية لتلك الجرائم على الروح الفرنسية. فهم لا يدركون خطورة التعذيب والإعدامات وفظاعة اغتصاب الفتيات الجزائريات إلاّ من خلال مَساس هذه الجرائم بِشرف فرنسا.

يُستحسن أن نتأمّل في هذا الموقف. إنّ هذا الإقصاء للجزائريين، وهذا التجاهل بمعاناة الرجل المعُذَّب أو الأسرة التي أُبيدت يشكلان ظاهرة فريدة من نوعها، كما يندرجان في التفكير الأناني والاجتماعي المركز الذي صار خاصية بالنسبة للفرنسيّن.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

وفي الحقيقة لا أساس للتخوّف من عدوة معنوّية له، فلا يعاني أبداً عناصر الشرطة من تأنيب ضمائرهم، وإنّ توسيع رجال الشرطة ممارستهم المهنية خارج مكاتبهم أو ورشاتهم، أقصد قاعات التعذيب، يرجع إلى الإرهاق العصبي فقط. فكان رجال الشرطة يطالبون باستئناف ممارساتهم التعذيب بدلاً من تَطْمين أخلاقي.

طبيعة النظام الاستعماري

لا تخالف ممارسة التعذيب في الجزائر أيّ قانون، فأعمال الشرطي تندرج في إطار المؤسسة الاستعمارية وتعبّر عن ولاء حقيقي للنظام. فلا بديل للجنود الفرنسيين دون إدانة الهيمنة الفرنسية. إنّ وجود الفرنسي في الجزائر يقتضي تصرُّفه كجلاد لأنّ رغبة فرنسا في البقاء في الجزائر تقتضي احتلال عسكري دائم والحفاظ على هيكلة بوليسية قويّة.

إنّ القِوى المعادية عاجزة عن إدراك أنّ مخرجها الوحيد هو إخلاء التراب الوطني.

إنّ الشعب الجزائري لا يناضل من أجل مناهضة التعذيب والاغتصاب والاغتيالات الجماعية. فتاريخ الاحتلال الفرنسي مليء بمثل هذه الجرائم، وما زال أطفال منطقة القبائل يُخوّفون بالوعيد بـ«نداء بوجو».

ولا يجهل الشعب الجزائري أنّ الهيكلة الاستعمارية تقوم على ضرورة التعذيب والاغتصاب والاغتيالات.

لذلك يجب أن تكون مطالبتنا كاملة ومطلقة.

بالنسبة للجزائريين، إنّ المسألة التي يثيرها سُهاد الشرطيين الساديين ووَشْك تحوّل الجنود الجلادين إلى فاشيين هي مسألة محددة. كيف يمكننا تغيير استراتيجيتنا وتكثيف كفاحنا لتحرير القطر الوطني في أقرب الآجال؟

وكل اعتبار آخر فهو اعتبار غريب عنا تماماً.

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org معهد الهوڤار

مشاهد من ممارسة فرنسا التعذيب إبان
حرب التحرير الوطني 1954 م – 1962

© 2003-2011 Hoggar | www.hoggar.org